من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
تــأليــف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهـــداء
- إلى الشمعة التي خبا نورها..
- إلى الروح الطاهرة النقية التي صعدت إلى بارئها..
- إلى الفارس الذي سجل بنبله وخلقه أطيب صفحات الذكرى..
- إلى العالم والمثقف والطبيب الذي رحل عن دنيانا بعد أن ترك في نفوسنا أعمق الأثر بعلمه وثقافته ونبله وعشقه لوطنه..
- إلى روح الأخ والصديق الدكتور عبد الله بن عبدالرحمن الباكر أهدي هذا العمل الأدبي المتواضع.
محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]
المقــدمة
يبقى التواصل الحضاري والإنساني مبدأ أصيلاً وهدفًا جوهريا لمن يحملون رسالة حضارية حقيقية تسعى إلى الارتقاء بالذات الإنسانية والابتعاد بها عن مهاوي الردي وحضيض الهمجية.
وتظل الجسور وعوامل التواصل والقواسم المشتركة بين الثقافات والحضارات التي حملتها البشرية أملاً وحلماً مقدساً ينبغي على المخلصين من البشر أن يسعوا قدر طاقتهم لدعمها وترسيخ ركائزها؛ حتى تتقارب المسافات وتتلاشى مساحات الكراهية وتراكمات الحقد التي خلفتها صدامات ومفاهيم فرضتها أحداث التاريخ وضرورات الصراع الإنساني.
وبرغم الضباب الذي يغلف الحلم والهدف يبقى الأمل قائمًا ولو ببصيص من نور يشجع الإنسان ويدفعه نحو الشاطئ الآخر محاولاً ومحاوراً {تَعَالَوْا إِلَى» كَلِمَةٌ سَوَاءٌ}.
كانت تلك هي الخطوط الأساسية للفكرة الوليدة التي حاولتُ قدر الجهد والطاقة أن أدخل بها إلى ميدان المجابهة والمواجهة، حيث لا معني للتقاعس الذي يعطي معني الهزيمة والنكوص، محاولاً في نفس الوقت ومن خلال أحداث التاريخ والبحوث العلمية الموثقة الربط بين ما كان وما يحدث. ومعذرة عزيزي القارئ إن شاب عملي تقصير فالكمال لله وحده .... وإلى الملتقى.

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

حوار على ضفاف التايمز
هكذا ولدت الفكرة.... وهكذا كان القرار فكرة معطرة بالنبل الذي حملته حضارات قديمة ولدت منذ فجر التاريخ، وتراكمت خصائصها الإنسانية في النسيج الإنساني العربي، الذي شهد على أرضه مولد الرسالات السماوية كلها، وكانت الخاتمة أعظمها.. ونزلت رسالة الرحمة والنور والعدل والحرية شاملة كاملة لخير البشرية بأسرها، دونما تفريق أو تمييز بين أبناء البشر.
وتفرض الأحداث والوقائع نفسها وتتشابك المفاهيم وتتداخل ويتردد السؤال مخيفاً في معناه.. وماذا بعد؟ وإلى أين يسير العالم؟ ولماذا يحدث ما يحدث؟ ويتردد داخل النفس صدى الآيات العظيمة: { وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }، { فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}. كان الطقس باردا وغاضبا كعادته في أوربا، خلال فصل الشتاء، وبالتحديد في مدينة لندن، حيث كانت الشمس في حالة خصام متواصل مع هذه المدينة العريقة.
ومن نوافذ الطائرة، وبالرغم من أن الساعة كانت الخامسة مساء تقريبا، أي قبل الغروب بقليل، حيث كانت الطائرة تنهي مناورة الهبوط على أرض مطار هيثرو.
في تلك اللحظات كان الجو مظلما، وكانت أضواء مدينة لندن تظهر بألوانها الفوسفورية المختلفة، وأضواء مصابيح السيارات المتحركة في شوارعها. ومن نوافذ الطائرة التي كانت عجلاتها تلامس أرض الممر في تلك الحظات، كان المسافرون ينظرون إلى أرض المطار التي بللتها زخات متواصلة من المطر، وانعكست عليها أضواء المصابيح. بينما كان الآخرون يتحررون من أحزمة المقاعد، وينهضون في عجلة لتناول أمتعتهم من خزائن السقف في الطائرة، برغم التعليمات المتكررة بضرورة الهدوء، وعدم فك أحزمة المقاعد قبل إطفاء الإشارات الضوئية الدالة على ذلك.

كان ذلك في الأسبوع الأخير من شهر يناير، حين هبطت البوينج، التابعة لشركة طيران الخليج، في مطار هيثرو، في الخامسة مساء بتوقيت لندن، بعد ثمان ساعات متواصلة من الطيران بين عاصمة خليجية تتسم بدفئها المزدوج في المشاعر الإنسانية الفياضة، وطقسها المشمس الرائع، في فصل الشتاء، وبين مدينة لندن ببرودتها الشهيرة، في مشاعرها وطقسها الضبابي الكئيب.
وبالرغم من أن الطائرة عادة ما تقطع المسافة من الخليج العربي إلى مدينة لندن، في ما يقارب سبع ساعات، إلا أنه وحسب تفسيرات الطاقم كانت الرحلة عكس اتجاه الرياح القادمة من أوربا باتجاه الجنوب، في هذا الوقت من العام، مما تسبب في إطالة وقت الطيران لمدة ساعة كاملة.
كان المسافرون على متن هذه الطائرة، خليطا متنوعا من الجنسيات الآسيوية والأوربية. وكان بينهم مسافر عربي يبدو على هيئته وشكله أنه خليجي، بعارضة المميز في وجهه، ولهجته الخليجية، اتجه مباشرة إلى مقاعد المدخنين الخلفية في الطائرة، حيث وضع حقيبة يده في خزينة السقف وأعطى معطفه للمضيفة، التي تناولته بابتسامة المضيفات المعهودة.
ودع العربي رفيق مقعده الياباني وهما يغادران الطائرة بعد أن تناول معطفه من المضيفة، متجهين إلى إنهاء إجراءات الجوازات، ولم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة، ارتدي خلالها الخليجي معطفه الثقيل اتقاء لبرودة الطقس خارج المطار، ودفع عربته التي تحمل حقيبة ملابسه خارج البوابة باتجاه موقف سيارات التاكسي.
وما أن تجاوز باب الخروج، حتى لفح وجهه الهواء البارد المصحوب بالرذاذ الخفيف. وخلال دقائق قليلة كان مسافرنا يستلقي داخل التاكسي، متوجها إلى مسكنه الواقع في منطقة (ساوث وست) بشارع كروموبل. بدا الإرهاق على وجهه بسبب ساعات السفر الطوال، وزاد منه الطقس الضبابي الكئيب البارد والماطر، وتلك الأضواء المنعكسة من مصابيح الشوارع والسيارات واللافتات على الأرض المبللة بمياه المطر، مما جعله يزفر زفرة طويلة، ومن ثم تبادل حديثا قصيرا وهو يزين وجهه بابتسامة واهنة مع السائق الإنجليزي.
وبعد حوالى نصف ساعة، توقفت سيارة التاكسي أمام البناية، وداخل السيارة أعطى السائق أجرته مضافا إليها إكرامية تعبر عن نفس كريمة، وحمل حقائبه. وخلال لحظات كان داخل شقته الدافئة التي يحمل أثاثها مزيجا من الذوق العربي واللمسات الغربية، مما أضفي على جوها العام هدوءا وراحة خففت من إرهاقه النفسي، والبدني، استراح على أثرها قليلا، وشرع على الفور في تبديل ملابسه، ودلف إلى الحمام ليزيل عن جسده وروحه عناء سفر طويل وإحساس بالوحشة بدأ يتسلل إلى نفسه، حين هاجمه شعور غريزي بفراق موطنه وأهله، وانتقاله إلى مجتمع مغاير تماما في ثقافته وتراثه، بعد أن حاول الاطمئنان هاتفيا على السيدة مشرفة المنزل، وأيضا ليطمئنها على وصوله. ولكن يبدو أنها كانت خارج المنزل، فأغلق الهاتف وهو يتمتم بينه وبين نفسه قائلا: مسكينة تلك السيدة الطيبة.
لم تكن تلك هي المرة الأولي التي يسافر فيها بعيدا عن موطنه، وأهله وحيدا، بل ربما كانت المرة الأربعين أو الخمسين، وهو لا يذكر تحديدا كم عدد المرات التي سافر فيها مع أهله، أو بدونهم، لكنه يذكر بكل تأكيد أنه في كل مرة يفارق فيها موطنه الذي يضم أسرته، وأصدقاءه، ومحيط حياته بكل تفاصيلها، يشعر داخل نفسه بموجات من الوحشة الممزوجة بالحنين تهاجمه، إلى أن يعتاد الأمر بمضي الوقت، ويتأقلم مع واقعه الجديد. ولم يكن يثير هذا الإحساس فيما بعد سوى الصدامات الثقافية العادية، التي تحدث بشكل عابر، سواء حدث ذلك في الشارع، أو في مجمل سير الحياة الاعتيادية اليومية، أو في أي بلد آخر، يختلف في تراثه، وتقاليده الاجتماعية والروحية.
وكان يرى من واقع خبرته في التعامل والتعايش مع الشعوب الأخرى، التي تختلف في ثقافتها وتراثها، خاصة تلك الشعوب الشرقية، بالرغم من تراثها الروحي المختلف - أن شعوراً بالألفة، أو قل شعوراً أقل بالاغتراب والتباعد النفسي، كان يراوده داخل نفسه.
أما في أوربا، فقد كان يشعر شعورا خفيا، لكنه قوي وملموس بمدى التباعد النفسي والروحي والفكري مع الأوربيين. وللحقيقة.. لم يكن هذا الإحساس نتاج فكره، وروحه وبيئته، بل كان بمثابة رد فعل طبيعي لمشاعر الأوربيين هناك تجاهه. ولم يستطع أن يحدد وقائع معينة ولدت لديه هذا الإحساس المقيت.
ربما تجمعت داخل روحه تراكمات تاريخية، ودينية، وسياسية، إضافة إلى الشعور الروحي الكامن في أعماق النفس البشرية وتفاعلاتها بالتدافع والصراع الحضاري الطبيعي القائم بين البشر على اختلاف مشاربهم، وعقائدهم، وثقافاتهم في هذا العالم.
وهذا أمر طبيعي وفطري في نفوس البشر. حاول مرات أن يفتش داخل روحه، وفكره، وتاريخه، عن أسباب مقنعة لذلك التباعد، وتلك النظرة المغلفة برائحة الكراهية والعداء النفسي الخفي المتبادل، حين كان يساوره الشعور بالفزع، فلم يجد أبدا داخل روحه عاملا يفرض ذلك الشعور، ومن ثم وجد نفسه إنسانا يحمل روحا مشبعة بدفء إنساني مشع ممزوج بعطر عقيدة سماوية عظيمة حملت النور والسلام للإنسان على ظهر الأرض، لتنقذه من نهاية مأساوية معلومة، تحمل تباشيرها عثراته وشطحاته ومحدودية رؤاه، وتخبطه الذي أفرز نماذج هائلة القبح، ومازال يفرز مآسي إنسانية تحمل آلاما هائلة، وجروحا غائرة، لا تكاد تندمل حتى تحدث غيرها في النفس البشرية.
كان يكتشف كلما أمعن فكره أنه لا يكنُّ عداء أو بغضا لهؤلاء البشر أبداً، بل كان يحمل في نفسه إعجابا، وتقديرا لجوانب حضارية رائعة لديهم حققها التقدم العلمي والتقني الذي استفادت منه الإنسانية، وهو شخصيا استفاد من ذلك.
إذن ما الخطأ؟ وأين هو؟ كان يسأل نفسه في غمرة هذا التفكير، وذلك الإحساس، عله يلمس بعقله وروحه مكمن هذا الخطأ، وهو يرى الجنون يصنع ذلك الصراع، ويحوله من أداة حوار تحكمه العقلانية، وتلمس سعادة البشرية وإنقاذها من هاوية الشقاء الذي تعيشه إلى قتل، وحرق، وتشريد، وتدمير، وحروب ظالمة، تظهر ملامحها المخيفة في آفاق فكره، وتكاد تقترب في نهاية الأمر لتصيبه في صميم ذاته.

تتوالى داخل عقله أحداث قديمة في تاريخها تتكرر على مر التاريخ، وسجلتها صفحاته، لتكون شاهدة على صدقها وحقيقتها. منذ بدأت جحافل الغرب تطرق أبوابنا غازية، بعد نزول الرسالة العظيمة التي حملت للبشرية خاتمة الرسالات الإلهية لتضيء للبشرية دربها بدستور عظيم، وناموس يضمن للعالم كله حياة مضمخة بالأمن بعد الخوف، والسعادة بعد الشقاء.
تثور في داخله هواجس مخيفة حول مصطلحات لا يدري عنها شيئا من خلال تراثه، وقاموس ثقافته، ومجتمعه كالعنصرية العرقية - الطائفية - التطهير العرقي - النازية.
ويثور تعجبه واستفهامه ثم يقفز سؤال إلى عقله : »نحن لم نعرف ذلك أبدا منذ بداية تاريخنا«! ويظل يفتش داخله عن لحظة واحدة مارس فيها سلوكا من هذا النوع البغيض فلا يتذكر.. وتهاجمه صورة مجتمعه بقيمه العظيمة التي أصلتها وغرستها عقيدة الإسلام في صلب تراثه وثقافته، والغرباء الذين يعيشون داخل وطنه يعملون ويثرون ويستمتعون بجميع الخدمات والامتيازات تحت خيمة هائلة من الكرم والنظرة الإنسانية الرفيعة، ويبرز أمامه التباين واضحا.
ويظل يتذكر التفاصيل الصغيرة في الحياة.. كيف يمضي وقته وينام ويستقبل أصدقاءه، ويقدم المساعدة في تجرد، لغريب أو قريب! كيف يتقلص قلبه من الحزن لمأساة إنسان وكيف يهب الآخرون في الشارع لنجدة إنسان يطلب المساعدة! أشياء وسلوكيات عفوية رائعة لا يكاد يرى لها مثيلا هنا.
وتتوالى الصور المخيفة وتتحول من إعجاب حضاري في جوانب بعينها إلى خوف هائل وهو يسترجع أفكاره حول القوة المدمرة التي تملكها تلك الحضارة التقنية الهائلة.. وماذا يمكن أن تفعل إذا لوثتها وتمكنت منها تلك الأفكار القائمة على مصطلحات العرقية الطائفية والنازية والتطهير العرقي.
تبلور في ذهنه سؤال أخير بعد أن أنهكه التفكير : »هل ثمة نظرة قائمة على العقيدة تتحكم في سير ذلك الصراع بين الغرب وبيني؟ وإلى أي مدى تنتهي؟ وهل يعقل ذلك وهذه الحضارة الغربية تملك عقولاً واعية وناضجة تفهم وتمحص وتعرف يقينا الخطأ والصواب والحق والباطل؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك قوي خفية شريرة تعمل بشكل تآمري على هذا العالم وسكانه من البشر؟«. يحاول الهروب بفكره بعيدا فيصطدم بأحداث تجري في البوسنة والهرسك والشيشان وكل بلاد المسلمين لتجعل من الإسلام عقيدة مشوهة في نظر الشعوب الأخرى.
وهل الإسلام إلا رسالة سماوية وعقيدة ترتفع بالإنسان وتسمو به دون النظر إلى عرقه وشكله وماله وأصله؟! هل الإسلام إلا عقيدة إلهية حررت الإنسان من عبودية الإنسان ومنحته امتيازا هائلا ليكون بالفعل أكرم المخلوقات على ظهر الأرض وأسماها عقلا وفكرا وروحا؟! هل الإسلام إلا عقيدة إلهية حملت العدل والرحمة للإنسان، وناموسا أعظم ينظم العلاقة ليس فقط بين الإنسان والإنسان، بل بين الإنسان ومجمل ما في حياته من طبيعة وموارد حياة؟! حتى في الصراع كان الإسلام عظيما وهو يفصل بين الحق والباطل وبين ما ينفع الناس وما يضرهم.
وهل الإسلام إلا عقيدة إلهية ورسالة لكل البشرية على ظهر الأرض وليست لطائفة أو فئة أو عرق معين من البشر؟ ويمر شريط طويل من الذكريات والأحداث والتفاصيل الصغيرة التي تبني داخل نفسه ثقة هائلة بنفسه وتاريخه ومجتمعه وثقافته.
يتذكر ذلك الصغير الذي يخرج من بيته حاملا طبقا من طعام متوجها إلى بيت الجيران، ليأكلوا من نفس الطعام. ثم يتذكر أباه وهو يجلس، ليحسب قيمة زكاة المال، ويحدد المحتاجين من الأقرباء والجيران والآخرين.
ويعود ليتذكر نفسه في صباها، وهو يلعب في ساحات المنطقة التي يعيشون فيها، وشوارعها دون خوف أو وجل.. ثم يتذكر أباه وهو يعنفه، وأمه وهي تعاقبه لأنه أتى أمرا لا يجب أن يكون حين لم يؤد فروض الاحترام للكبار من جيرانه، وكيف يهتز هذا المجتمع الصغير وتتزلزل أركانه حين يسمعون عن أحد الناس من الجيران أو الآخرين أمرا يشينه ويتعارض مع أخلاقيات مجتمع يحترم فيه الصغير الكبير، وكيف لم يكن يستطيع أن يمد يده لتناول الطعام وهم يجلسون جميعا إلى المائدة قبل أن يبدأ الكبار.. ذكريات وذكريات.. وتفاصيل صغيرة عظيمة في صورتها ودلالاتها مازال يعتز بها ويتمنى في قرارة نفسه أن تظل راسخة في مجتمعه إلى الأبد.
لقد بدأ يجتاحه شعور قوي وهائل بأنه من خلال تلك التقاليد وذلك التراث الروحي العظيم، أصبح يمتلك قوة حقيقية وثقة هائلة بنفسه وذاته، وإيمانا لا يتزعزع بمجتمعه وقيمه العليا. كانت برهة طويلة ومركزة من الاستغراق في التفكير الذي هاجمه دفعة واحدة في غمرة شعوره بالحنين والشوق، أفاق بعدها على صوت رنين الهاتف الموضوع على منضدة صغيرة بالردهة ليجد نفسه مازال واقفا أمام مرآة الحمام، وصوت الخرير المنبعث بسبب تدفق الماء الدافئ من الصنبور إلى حوض الاستحمام ينبئ بامتلاء الحوض.
أغلق على أثره صنبور المياه، وأسرع إلى الهاتف، وما أن مد يده ليرفع السماعة حتى توقف الهاتف عن الرنين. عاد إلى الحمام وهو يفكر، ربما كانت زوجته هي صاحبة هذه المكالمة وتريد الاطمئنان عليه، وأكمل خلع ملابسه وألقى بجسده في المياه الدافئة وبدأ يغتسل، وأحس بتيار جارف ولذيذ من الراحة يسري في نفسه وجسده أزال عنه الشعور بالإرهاق، وبدأ يردد أغنية شعبية خليجية وهو يستحم. أنهي الرجل استحمامه وهو في أوج نشاطه مرتديا روب الحمام ودلف إلى المطبخ حيث وجد بعض الفاكهة الطازجة التي ابتاعتها السيدة مشرفة المنزل العربية الأصل والإنجليزية الجنسية، التي تعيش وحيدة في شقة حكومية، والتي تجاوز عمرها الخامسة والخمسين، حيث يعمل ولدها في إحدى المدن البريطانية البعيدة بعد أن توفي زوجها.
وقد تعرف عليها مصادفة خلال الصيف قبل الماضي حين كانت تبحث عن مسكن جديد تريد الانتقال إليه حيث عرفها على أسرته التي أعجبت كثيرا بها فاختارتها لرعاية المنزل مقابل بعض الأتعاب. التقط بعض حبات الفراولة الإنجليزية الطازجة، وقليلا من الكرز الأسود

الناضج، وهو معجب بتلك السيدة التي ترعي المنزل في غيابهم بكل اهتمام، غسل فمه وتوجه لأداء الصلاة قبل خروجه في جولة ليلية سريعة يفاجئ بها بعض أصدقائه الذين يتجمعون ليلا في شارع كوينزواي، وهم في معظمهم من العرب المقيمين بصفة دائمة في بريطانيا.
ها هو ذا قد ارتدي ملابسه الثقيلة، وتذكر أن يحادث أسرته في الدوحة ليطمئنهم على وصوله، وبالفعل تحدث مع أبنائه وزوجته التي أخبرته أنها كانت على وشك محادثته مرة ثانية، فطمأنها، وخرج إلى الشارع حيث كان المطر يتساقط خفيفا واحتمي بمظلة موقف الباص إلى أن توقف أحد التاكسيات فاستقله ذاهبا إلى كوينزواي.

* * *

انتهت المحاضرة الدينية في مسجد ريجنت، والتي بدأت بعد صلاة العشاء، والتي ألقاها أحد الدعاة المسلمين المبعوثين من قبل احدي الهيئات الدينية العريقة بإحدى البلاد العربية، والتي تعرض في موضوعها الرئيسي للصيام وفضائل شهر رمضان والآداب الإسلامية بشكل عام، وتلقي الشيخ في ختام محاضرته أسئلة الحضور المختلفة واستفساراتهم حول شتي الموضوعات التي تهم المسلمين.
وفي النهاية بدأ الحضور بالانصراف وكانت بينهم السيدة مني، تلك السيدة التي تتولي الإشراف على منزل ذلك الرجل الخليجي، حيث توجهت مباشرة إلى محطة القطار بعد أن ودعت صاحباتها واستقلته عائدة إلى بيتها. ومن محطة مترو بايرل سكورت، سارت السيدة منى ومظلتها مفتوحة تتقي بها الرذاذ، وأمام البناية التي توجد بها شقة ذلك الرجل الخليجي، ألقت نظرة فاحصة فهمت من خلالها أن الزائر قد وصل، حيث لاحظت تغيرا في مستوي الإضاءة. فذهبت من فورها مطمئنة إلى مسكنها المجاور.
وعلى الفور دقت أرقام هاتفه لتهنئته بسلامة الوصول، لكنه كان في تلك اللحظات يعانق أصدقاءه في المقهي مستفسرا عن الذين تخلفوا عن الحضور. ولم تمض ساعة حتى كان الشمل قد التأم، ودارت الأحاديث حول المستجدات في شتي الأمور، بينما كانت أقداح الشاي بالنعناع تصب أمامهم وتفوح منها رائحتها الطيبة.
دلفت السيدة منى إلى المطبخ لتعد عشاءها وهي في حالة من الرضا الروحي، والراحة النفسية؛ حيث يخفف عنها وحدتها حضور هؤلاء الناس الطيبين من بلادهم، وحضورها للأمسيات الدينية والندوات، التي تتيح لها فرصة رائعة للالتقاء بصاحباتها في جو روحي عظيم يسمو بها فوق آلامها الهائلة، التي تكدر خاطرها دوما حين تفكر فيما وصل إليه حالها هنا. ثم تتذكر ذلك الزمن البعيد منذ أكثر من أربعين عاما، وهي تعيش بين أسرتها التي تضم والديها وشقيقتها الوحيدة الأكبر منها في بلدها العربي، وتتذكر بشوق مؤلم صديقات طفولتها ومدرستها وتفاصيل العلاقات الاجتماعية الدافئة التي لا تترك للإنسان مهما بلغ أمره مجالا لتنهشه.. تلك الوحدة القاتلة بالرغم من أن لها ولدا من زوجها الراحل يعمل بمهنة محترمة في إحدى المدن البعيدة في بريطانيا، لكن عجلة الحياة هنا لا ترحم ولا مجال لذلك النوع من العواطف الإنسانية.
ولا تنسي تلك السيدة حينما تخرجت من الجامعة وعملت بوظيفة مهمة في إحدى الأماكن المهمة التي استمدت منها أهميتها في بلادها، وكيف كان الزملاء العزاب الذين لم يتزوجوا يدورون حولها يخطبون ودها طمعا في موافقتها على الزواج وهي تصد عنهم في دلال وأدب. كانت أحلامها كبيرة، ولم لا؟ فهي من أسرة طيبة، وهي جميلة وعلى علم وخلق.
كانت تحلم بمستوي أرقي وأكبر يحتويها، ورجل قادر يحقق لها طموحاتها المشروعة وأحلامها الكبيرة.
وقد أتت الفرصة الهائلة لتحقق أحلامها. وكأن القدر كان على موعد مع تلك الأحلام، حين جاء ذلك الرجل الذي يعيش في بريطانيا ويرتبط بعلاقات علمية مع إحدى جامعات مدينتها، حيث رتب القدر لقاءهما مصادفة في مكتب رئيسها. ولم يضيع الرجل العربي الأصل وقته، ولم تمانع هي، فكانت الزيارة التقليدية لمنزل عائلتها، وأعطت الموافقة على الاقتران بها، ومن ثم الزواج؛ فقد كان هو الآخر يبحث عن إنسانه ينتمي إليها بروحه وتراثه وثقافته ودينه.. عاشت أيامها الأخيرة قبل الرحيل معه تنسج من أحلامها رداء لحياة أوربية راقية تعيشها، وترسم بخيالها صورا رائعة للشوارع والحدائق وأسلوب الحياة لتعيش بهذا الخيال وتستمتع بتفاصيله.. هي أيضا لا تنسي حين سافرت مع زوجها إلى لندن عندما هبطت بهما الطائرة في مطار هيثرو ومنه إلى المنزل، الذي أعده الزوج لحياتهما.
وبدأ قطار الحياة سيره في هذه المدينة العريقة حيث يذهب الزوج إلى عمله قبل التاسعة صباحا ليأتي بعد السادسة مساء وهي مشغولة بمهامها المنزلية ورعاية أمور زوجها، إلى أن رزقت بمولود جميل ملأ عليها فراغ وقتها وتململها الذي بدأت أعراضه في الظهور، فلا صديقات تعرفهن ولا ارتباط بأي سيدة من الجيران. فقد ودعت هذا المجتمع الدافئ بعلاقاته وأتت هنا حيث يختلف رتم الحياة وطبيعتها بشكل جوهري حتى التفاصيل الصغيرة في التعامل والحياة باتت تختلف.
إنها الحقيقة مجردة وعليها أن تتقبلها. فقد أتت من مجتمع يختلف اختلافا جذريا مع هذا المجتمع الجديد عليها الذي تختلف فيه الطباع والسلوكيات والثقافة والتراث والعادات. إنها مثل صاحبنا الخليجي تماما.. كانت تفكر في ذاتها التي تنتمي لمجتمع آخر، وتسأل نفسها: ألست من مجتمع ينتمي للبشرية؟! ومن شعب وأمة صنعت أقدم وأعرق حضارات إنسانية عرفها التاريخ؟! ثم تحاور نفسها قائلة: إنني أتحدث الإنجليزية وعرفت بعض النساء هنا من الجارات، وخلال المناسبات الاجتماعية العادية التي تخضع لبروتوكول غريب تضعف فيه النزعة الإنسانية وتكاد تتلاشي فيه عواطف البشر، إلا أن هناك حاجزا خفيا هائلا في النفس وفاصلا كبيرا يفصل بيني وبينهن لا أعرف كنهه، هناك دائما شيء خفي لا يسمح لعوامل التقارب والتمازج الإنساني الحقيقي أن تظهر بيننا هنا؛ حيث لا وجود للصداقة الحقيقية التي عرفتها في موطني هناك مع صديقات بلغت العلاقة بيني وبينهن درجة فاقت حتى رباط الدم، وفي الشارع الذي أسكنه وفي الطريق إلى عملي بدءا من الجيران وبائع الصحف في الطريق والعجوز الواقف داخل كشكه الصغير، وحتى حارس البناية التي أعمل بها.

كل هؤلاء وغيرهم أتبادل معهم تحية الصباح المشبعة بابتسامة حقيقية، تحمل ارتباطا إنسانيا ساميا بهم، ويتصل هذا الارتباط الإنساني الرفيع حتى بأشكال البنايات والطرقات ورائحة الهواء وصرخات الصغار الذين يلعبون في مداخل بناياتنا وشارعنا، صوت الأذان، ومعاني كلماته العظيمة التي تدعو الإنسانية كلها إلى السمو والارتقاء والفلاح وعبادة الواحد الأحد، أفتقده تماما هنا.. آلاف الآلاف من التفاصيل الصغيرة الرائعة التي تمتلئ بها الحياة هناك، لا يوجد لها أثر هنا، ولم لا؟ فهنا الحضارة .. حضارة .. أي حضارة! شوارع نظيفة بنايات رائعة ونظام .. إنجازات علمية هائلة.

ويدور سؤال كالعاصفة داخل عقلها.. ما هي الحضارة الحقيقية؟ وما هو جوهرها وهدفها؟ وماذا أعطت للإنسانية؟ وماذا سلبتها؟ السيدة منى عندما تجلس إلى نفسها وتتأمل، ترى أن نظرة إنسانية سريعة فاحصة، تؤكد انهيارا خطيرا في النسيج الإنساني لدي البشرية، وتراجعا خطيرا في الطاقة المحركة للإنسان باتجاه سعادته وأمنه ومجمل حياته.

إنها المشاعر الفياضة التي تصنعها العواطف الإنسانية الدافئة التي تنسج بها البشرية رداءها الحقيقي الذي يحميها من برد الخوف والجوع والشقاء.. هل أعطت تلك الحضارة الهائلة بمقاييس الدمار والقتل والحقد والخوف الذي يظهر في عيون البشر في الشوارع والبيوت من لص قاتل أو سفاح مغتصب؟ هل أعطت الإنسانية عوامل سعادتها وأمنها واستقرارها؟ إنها بالفعل منحت الإنسانية العديد من وسائل الحياة المريحة التي لا ينكرها إلا كل جاحد، غيرت بها شكل حياة الإنسان، وغيرت مسار الإنسانية بشكل يكاد يكون جذريا بالنظر إلى الماضي البعيد، وانعكس كل ذلك بشكل جذري على صحته، بتقدم علوم الطب وأبحاثه، وعلى عقله بتوفير المعلومات، وسرعة نقلها، وعلى مجمل حياته وراحته بثورة الاتصالات وسرعة الانتقالات، وتجاوزت ذلك بالوصول إلى القمر ومحاولة غزو الفضاء.. لكن.. وآه من لكن تلك.. لقد سلبت الإنسان إنسانيته، وبقدر ما أعطت من وسائل وأشكال رائعة للهيكل العام لتلك الحضارة، إلا أنه يكفيها عارا وسقوطا وقصورا، اختراعاتها المدمرة الساحقة من السلاح، ووسائل الدمار الشامل، التي يكفي خطأ بسيط - وهو أمر وارد - ليجعل مجمل الكون وحضارته كالعهن المنفوش، ويزيل من على وجه الأرض كل أثر للإنسان وحضارته تلك.. أوه! ما هذه الترهات والخرافات .. لا .. لن أستكفي بذكر أشياء محتمل حدوثها، بل يكفيها عارا وسقوطا أنها نزعت عن الإنسان رداء إنسانيته، حين جعلته عبدا ذليلا، وأسيرا للمادة وللشهوات الدنيئة الزائلة، ومزقت النسيج العظيم الذي يقي الإنسان وإنسانيته برودة الخوف والشقاء.

حتى الموارد الإلهية التي سخرها الخالق العظيم للبشرية كنوزا مجانية لاستمرار حياتهم، كالماء، والهواء، والغابات، والبحار .. أصبحت في ظل تلك الحضارات في خطر عظيم، وتلوث هائل، بفعل وإفرازاتها.

وهكذا تعود تلك الحضارة لتتحول إلى وحش يلتهم ويدمر ما صنعه، وتتضاءل الأرباح في نهاية الأمر لتقترب من خانة الأصفار، ومن ثم لتتحول إلى خانات الخسائر .. وأي خسائر؟! إنها سوف تكون في نهاية الأمر الإنسان نفسه.

وتبتسم السيدة منى في مرارة وهي تتذكر تلك الحادثة الصغيرة التي تحمل دلالات هائلة في مضمونها وبعدها الإنساني، حين كانت تنتظر القطار في محطة المترو على الرصيف، وإذا بها تشاهد عجوزا أوربية منهكة بفعل الحقائب التي تحملها، وتكاد تخر من التعب وتسقط أرضا، فأسرعت إليها بعفوية وتلقائية لتساعدها، فما كان من العجوز إلا أن أصابها الرعب، ومدت كلتا يديها لتمنعها من الوصول إليها، أو لحمل حقائبها عنها.

وهناك كان يقف أحد العرب، وقد شاهد بعينيه ما حدث فتقدم منها وخاطبها متسائلاً: الأخت عربية؟ قالت: نعم. قال لها ضاحكا: شاهدتك حين حاولت مساعدة تلك المرأة، ورأيت رد فعلها، أرجو ألا تلوميها على ذلك، لقد تخيلت أنك تحاولين سلب حقائبها، أو سرقتها، فهكذا وصلت أفكار الناس هنا، حيث لا أحد يساعد أحدا، أو يتقدم لنجدة إنسان يطلب المساعدة. قالت له: أمر غريب حقا أن توجد تلك المشاعر والأحاسيس المشبعة بالخوف وسط أوربا المتحضرة! فأشاح بوجهه قائلا: لم ترى شيئا بعد .. يبدو أنك حديثة العهد بأوربا. فأجابت: نعم. فقال وهو يسير بعيدا: الوداع يا سيدتي لقد وصل القطار .. وانقطع حبل الحديث.

وهناك في منزلها حكت لزوجها ما حدث، فقال لها: هنا قد يفهمونك بشكل خاطئ، فاحذري، ولا تحاولي التدخل مرة ثانية فيما يحدث بالشارع؛ فالأمور هنا تختلف تماما عما يحدث في بلادنا ومجتمعنا.

ويتوالى شريط من الصور والأحداث لحياتها هنا منذ البداية، والعلاقات الاجتماعية المحدودة مع بعض الأسر العربية، الذين كانوا ينتهزون معا المناسبات الاجتماعية المعتادة كزواج صديقة أو صديق، أو مولد طفل، أو مناسبات دينية ليلتقوا معا ولا شيء غير ذلك سوي زيارات متباعدة، أو لقاءات عابرة.

وتتذكر حين وضعت طفلها الأول والوحيد، وكيف كانت فرحتها .. الأمر الذي أنس وحدتها، وزين بيتها.. ثم وفاة زوجها.. وابتعاد ولدها عنها.. أمور فظيعة وثقيلة على النفس الإنسانية.

فقد كان عليها أن تتقبل المسلَّمات والبديهيات، كالموت باعتباره أمرا محتوما لكل نفس. أما أن تتقبل أمرا كابتعاد ولدها الوحيد وهي في هذا العمر، وهو رجل يافع قادر، ويحمل مؤهلا مرموقا، ووظيفة محترمة، ولا يزورها إلا على مرات متباعدة.

فهو أمر يشق على نفس تحمل تراثها العظيم الذي يضع أمرا كهذا في مرتبة العار. ولم تنس ذلك اليوم الذي كانت تبحث فيه عن منزل بديل، تريد الانتقال إليه، حين التقاها ذلك الخليجي على مدخل البناية، وللوهلة الأولي عرفت أنه في الغالب عربي، فألقت تحيتها بالعربية، وجاءها الرد بنفس اللغة مشفوعا بابتسامة تحمل الكثير من الإنسانية والدفء. وسألته قائلة: اسمح لي أن أسألك عن أمر يخص تلك البناية، هل هي تابعة للإسكان الحكومي؟ فرد قائلا: لا يا سيدتي، إنها بناية تضم شققا مملوكة لأشخاص، ومنهم نحن. فسألته وهي ترى فيه صورة ابنها: من أي بلد أنت يا بني؟ وهل تعيشون هنا؟ فأجابها قائلا: نحن عرب خليجيون نأتي هنا مع الأسرة خلال إجازة الصيف، ونقيم فيها خلال رحلات

العمل، كمسكن حين نأتي في أي وقت، وقد ابتاعها والدي رحمه الله منذ سنوات طويلة. ثم استطرد قائلا: تفضلي يا سيدتي لأعرفك على والدتي وزوجتي وشقيقاتي، إنهن بالداخل، فشكرته على وعد بزيارتهن مستقبلا؛ حيث إنها مشغولة بأمر الحصول على سكن بديل، وانصرفت.

وخلال أقل من أسبوع، كان ذلك الخليجي، يسير في شارع هاي ستريت كنستجتون، وسمع صوتا يناديه من الخلف، واستدار ليجد أنها تلك السيدة العربية. لكنه في هذه المرة وجدها والدموع تسيل على وجهها، وجدها باكية، حزينة، وكسيرة الخاطر.

فأسرع إليها متسائلا باندهاش: ماذا بك؟ ولماذا تبكين؟ فأخفت وجهها بيدها وهي تنشج باكية: إنني يا بني لا أدري كيف أتصرف؟ فأنا أستعد لنقل أثاث منزلي القديم إلى الشقة الجديدة بجواركم، وأريد أن أنقل الأشياء الخفيفة التي عبأتها في أكياس بلاستيكية وهي كثيرة وثقيلة، الأمر الذي أنهكني، وكما ترى فقد حملت بعضها على هذا الحامل الصغير ذي العجلتين، حيث أذهب ماشية على قدمي، لأعود مرة أخري لحمل أشياء جديدة.. وهكذا يا بني هدني التعب والإرهاق. ولم يرد الرجل الخليجي، بل نظر إلى الشارع ورفع يده مؤشرا لإحدى سيارات التاكسي المارة، وأخذ من يدها مقود عربتها اليدوية الصغيرة، قائلا لها اتبعيني يا أمي، أين منزلك؟ فأشارت قائلة: إنه قريب هنا على بعد مائة متر تقريبا، ودلفا معا إلى سيارة التاكسي متوجهين إلى منزلها، وهو يطيب خاطرها ويهدئ من روعها.

توقفت سيارة التاكسي أمام المنزل، وطلب من السائق الانتظار ليأتي ببعض الأغراض، وخلال دقائق قليلة كان قد وضع أكبر كمية من الأكياس الحاوية لأغراضها داخل التاكسي، ثم أمر السائق بالتوجه إلى شارع كروموبل، أمام بنايتها توقفت سيارة التاكسي وقام بنفسه بنقل الأغراض بمساعدتها إلى داخل شقتها، ثم عاد مرة أخرى لينقل ما تبقي بنفس سيارة التاكسي، ثم نقده أجره بعد أن شكره وتوجه بحديثه إليها قائلا: لقد أبلغت الأهل عنك حين قابلتك أمام البناية وأنت تبحثين عن سكن جديد، وهم ينتظرونك بعد أن تفرغي من ترتيب أشيائك داخل منزلك. شعرت في تلك اللحظات بروح جديدة تسري في جسدها، وأحست كما لو أنها عادت فجأة إلى موطنها وأصلها وحقيقتها.. إنها هنا غريبة تماما بعد كل هذه المدة والسنوات الطويلة التي عاشتها هنا، وحصلت فيها على جنسية وحقوق مواطني البلد المضيف.

وتذكرت أباها وأمها في تلك اللحظة اللذين رحلا عن الدنيا منذ أكثر من خمسة عشر عاما، وشقيقتها التي تعيش في كنف زوجها هناك في بلدها الأصلي مشغولة بأمور أسرتها وأبنائها.. ليست هناك من صلة إلا الهاتف على فترات متباعدة أو في مناسبات لدقائق قليلة محسوبة تقتصد من قوتها ومعاشها الحكومي الأسبوعي لتشترى بطاقة الهاتف، أو من خلال خطابات، بدأت تتباعد مواقيت وصولها.

إنها بالفعل غربة حقيقية، ووحدة قاتلة، وحياة قاسية ليس لها معني حيث فقدت كل شيء هنا.. الزوج.. الابن.. والعمر الذي ضاع وينبوعي الحنان الوحيدين لها والمتمثلين في والديها. نعم كل شيء ضاع، حتى الأمل بدأ يتلاشي، وبقي عليها أن تنتظر النهاية.. الله وحده يعلم كيف ستكون تلك النهاية؟ ومتي؟ أفاقت السيدة منى من هواجسها وجففت دموعها، وشعرت أنها تحتاج لأن تخرج من هذا الجو الكئيب الذي يجثم على نفسها، وروحها، وبالفعل سرعان ما رتبت أغراضها وملابسها التي نقلتها وأشياءها الصغيرة الأخرى ثم أغلقت باب شقتها، وغادرت البناية متوجهة إلى أولئك الجيران الطيبين لتتعرف عليهم.

لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة، حين دقت رقم شقتهم على اللوحة الخارجية المثبتة على جانب المدخل الأيمن للبناية، وسرعان ما جاءها الرد مستفسرا عبر نفس اللوحة، وانفتح الباب ودلفت لتجد باب الشقة التي جاءت لزيارة أصحابها قد فتح، ووجدت سيدة شابة في انتظارها. استقبلتها ببشاشة وترحيب، وأدخلتها المجلس ثم جاءت الأم بعد ذلك وبناتها مرحبات بضيفتهن. فقد أعطي الابن لوالدته وزوجته وأخواته فكرة مسبقة عن زيارتها. ووسط هذا الجو الإحتفالى وأكواب العصير الطازج، شعرت السيدة منى أن روحها تغتسل من الداخل وسرعان ما ذاب الجليد الذي يميز بدايات التعارف، وهي تحكي عن نفسها لسيدة البيت، وتستعرض حياتها منذ البداية.

كانت لحظات ودت السيدة منى ألا تنتهي، وتمنت في قرارة نفسها لو أنها ظلت معهم بقية عمرها. وبين مزيج من الحزن، والفرح للقاء هذه الأسرة العربية، قضت الضيفة وقتا مسح عنها غبار حزن هائل وحين همت بالانصراف بادرتها سيدة المنزل قائلة: ما دمت لا تعملين فتعالى دائما لتقضي وقتك معنا واعتبرينا أهلك هنا، وهي فرصة لتخرجي معنا في نزهاتنا، وجولاتنا التسوقية، فلن نجد أفضل منك هنا صديقة ومرافقة.

فأجابت وهي تكاد تطير من فرط سعادتها: سأكون معكم يوميا وستجدونني دائما بجانبكم وفي خدمتكم. ثم ودعتهم متوجهة إلى شقتها القديمة لتقضي فيها ليلتها الأخيرة. ففي الغد سوف تأتي الشاحنة الكبيرة ومعها العمال الذين سوف ينقلون أثاثها من شقتها القديمة إلى مسكنها الجديد هناك بجوار الأهل الجدد.

أصبحت السيدة منى وصيفة وصديقة لسيدة المنزل العربية وبناتها، لا تتركهن إلا وقت النوم أو الراحة، وبشكل عام أصبحت كأنها واحدة منهن. تنهض من نومها صباحا لتتناول فطورها هناك، حيث شددت عليها سيدة المنزل بألا تتناول طعامها إلا معهن.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد بدأت السيدة الكبيرة تمنحها وظيفة المتابعة، والإشراف على شئون المنزل في غيابهن، حيث لا يحضرن عادة إلا في موسم الصيف، حيث يقضون فترة طويلة تصل إلى ثلاثة شهور، عدا تلك الزيارات العارضة خلال العام كرحلات العمل، أو متابعة الأطباء، وتلك الزيارات لا تتجاوز أسبوعا إذا كانت لندن هدفهم الرئيسي، أما إذا كانت وجهتهم هي الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تصبح ليلة أو ليلتين للراحة فقط.

تقوم السيدة منى بوظيفتها المريحة، التي تتراوح بين الإشراف على المنزل، ومتابعة الرسائل التي ترد كفواتير المياه، والكهرباء، والغاز، والتليفون وغيرها.. وترتيب المنزل وتنظيفه قبل حضورهم، وشراء الأطعمة؛ حتى يأتوا وكل شيء جاهز بالمنزل. وأحست السيدة منى بأن الله أراد أن يعوضها بهؤلاء الناس عن الحرمان الذي لاقته خلال حياتها الماضية، والوحدة القاتلة التي جثمت على أنفاسها سنوات طويلة،

ولم يكن يؤلم نفسها، ويحطم قلبها، ويملأ جوانحها بالحزن، سوى سفرهم عائدين إلى بلادهم، حيث كانت تنتظر قدومهم بفارغ الصبر. حتى إنها كانت تعد الأيام، وهي تشعر في قرارة نفسها بأنها تعيش أيامها بدونهم في حالة انتظار متواصل لا تنتهي إلا بحضورهم إلى لندن.
وبالمقابل كانت سيدة المنزل سخية وكريمة في عطائها، فقد اعتبرتها إحدى عضوات الأسرة. كما حددت لها راتبا جيدا، نظير إشرافها على المنزل طوال العام في أثناء غيابهم.
الأمر الذي مكنها ومنحها القدرة على أن تشترى الهدايا لحفيدها العزيز، الذي لا تراه إلا نادرا. ولتشترى بطاقات الهاتف، لتحادث شقيقتها وابنها البعيد بجسده ومشاعره. وهكذا بدأت ريح طيبة تدفع أشرعة حياتها باتجاه شواطئ آمنة، كما تدفقت الطمأنينة إلى قلبها، والراحة إلى نفسها، ولم يعد يكدر خاطرها سوي غياب تلك الأسرة العربية، التي أصبحت بالنسبة لها الأهل والموطن.
تتنهد السيدة منى تنهيدة ملأتها بالراحة، وهي تتمتم بينها وبين نفسها بالحمد والشكر لله، وألقت نظرة عتاب طويلة على صورة ابنها شاكر الموضوعة في إطار على منضدة صغيرة بجانب الفراش بغرفة نومها شعرت في أثنائها بشوق جارف لرؤيته، ولضمه إلى صدرها، ولأن تُرْبِت على رأسه كما كانت تفعل وهو صغير، حين يأتيها راكضا، ويرمي بنفسه في حضنها، فتتلقاه بين يديها، وتضمه إلى صدرها، وتقبل رأسه في حنو بالغ.. إلى أن كبر وأصبح يافع العود، فبدأت تلاحظ ميله كأقرانه في المجتمع الذي يعيش فيه إلى الاستقلالية في الحياة وفي التفكير، كما لاحظت أن ولدها ربما كان يعاني نفسيا بين زملائه في المدرسة، برغم محاولاتها المستمرة لربطه ثقافيا بتراث الموطن الأصلي لغةً ودينًا، إلا أنه يبدو أن الاختلاف الجذري بين ما يسمعه ويعيشه في البيت، وما يراه ويمارسه خارجه، سبب له نوعا من القلق النفسي، كنتيجة منطقية للصراع المحتدم بين مفاهيم الحياة والثقافة، التي تحتوي في مضمونها وجوهرها التراث الفكري والثقافي، والروحي لمجتمعين يختلفان اختلافا جذريا في تلك المفاهيم، وظلت حرارة الصراع النفسي داخل عقل الفتي وروحه متأججة، حتى حسمتها طبيعة الحياة الأوربية لصالحها مبدئيا؛ فليس من السهل على فتي غض العود أن يقاوم تيار الحياة اليومية الجارف، وهو يبعده روحيا وجسديا ونفسيا عن موطنه الحقيقي، وهو ثقافته الأصلية وتراث أبائه الروحي والحضاري، ليكتشف في نهاية الأمر أنه من الأيسر له أن يأخذ الجانب الآخر من الحياة، ربما يتمكن من الوصول إلى الإحساس الحقيقي بالاندماج في المجتمع الذي يعيشه، وحتى يشعر بأنه أصبح فردا أصيلا من أفراده. بذلك أصبح الفتي أكثر رفضا لقيمه الإنسانية الأصيلة وأكثر ابتعادا، حتى أنه كان يتلاشي الإشارة إلى جنسيته الأصلية، وجذوره حتى يتقي ويتلافي نظرات أقرانه من المجتمع الآخر في المدرسة، وأصدقائه الآخرين، وحتى يشعرهم أيضا أنه واحد منهم، يحمل نفس النسيج الثقافي والحضاري، ووصل في ذلك إلى أبعد الحدود من الإنكار والتمرد والانسلاخ... ولكن هيهات.... كانت أمه تراقب حالته في ألم وخوف، ولم يتطرق إلى قلبها اليأس، لكن.. بعد وفاة والده أصبح الأمر أكثر صعوبة، وبات عليها أن تحافظ على الحد الأدني من القيم لديه، بتذكيره الدائم بلغته، ودينه، وثقافته.
وبرغم المدى البعيد الذي وصل إليه الفتي في خضم محاولاته للاندماج الكامل في محيطه الأوربي، والانسلاخ التام عن جلدته الحقيقية، إلا أنه في قرارة نفسه كان يشعر أن هناك هاجسا خفيا يقض مضجعه، ويعشش داخل نفسه، كان خفيا لدرجة التلاشي، لكنه كان موجودا بشكل أو بآخر في عقله الباطن، لا يستطيع التملص منه نهائيا.. صحيح أنه كان يتغلب عليه دائما بالنسيان تارة، وبالغوص أعمق وأعمق داخل مجتمعه الأوربي تارة أخرى، إلا أن البذرة برغم ضآلتها وصغرها كانت حية، وخصبة لدرجة أنه تعايش معها على أساس التناسي والابتعاد.. ولم يكن يعلم أن محاولاته ما هي إلا وهم وخداع كبير للنفس، فسوف يظل اسمه، واسم أبيه وأمه وعائلته ولون بشرته، شهادة حية على أنه ليس أوربيا أصيلا في نظر ذلك المجتمع الذي يعيش فيه... كان يستطيع بسهولة أن يتنصل من دينه رسميا هناك، وذلك أمر يسير، إلا أنه لم يستطع أبدا أن يأخذ هذا القرار.. لا يدري لماذا.. حتى إنه لم يفكر مرة واحدة في ذلك، والعجيب في الأمر أنه كان يشعر شعورا خفيا بالسعادة، حين كانت تصادف أحداث أو أخبار، يرتفع فيها شأن المسلمين أو العرب.. بالمقابل كان يشعر داخل نفسه بحزن خفي حين يقرأ أو يسمع في وسائل الإعلام، أو خلال الحوارات اليومية ما يسيء إلى المسلمين أو العرب.. كانت البذرة حية قابلة للإنبات، لكنها كانت خامدة، ولم يكن هناك شريان واحد على استعداد لريها لتنبت، ومن ثم لتزهر وتثمر.... أنهى شاكر دراسته بالجامعة، وحصل على شهادة عليا، في أحد التخصصات المهمة، والمطلوبة، وبالفعل لم يكن هناك وقت ليضيعه، فالتحق على الفور بوظيفة جيدة، في إحدى المدن البريطانية البعيدة عن لندن، وكانت والدته أسعد النساء بولدها وهي تراه يخطو خطواته العملية الأولى.. لكن فرحتها كانت ممزوجة بحزن دفين يغطيه الأمل في الغد الآتي، عله يرعوي ويعود إلى رشده، ولم تكن تملك غير الدعاء والتضرع لله أن يحفظه ويهديه، فقد فعلت ما يجب عليها أن تفعله.
وتخيلت السيدة منى أن شاكرا سيأخذها لتعيش معه في مدينته الجديدة، بعد أن يستقر ويتحسن وضعه، ويحصل على كامل امتيازات الوظيفة، ولم تكن تعلم أنه على أرض تلك المدينة ستكون هناك أحداث أخري تحمل لها مزيدا من الألم، وهي الإنسانة التي حملت ووضعت وكافحت وتعبت وعانت، لتحصل على جائزتها الكبرى في النهاية، جائزة الحب والرعاية في وقت هي أشد ما تحتاج فيه إلى الرعاية والحنان، ولم تخطر على بالها أبدا كلمة الوحدة، التي ربما تحملتها قليلا من أجل صالح ولدها، لكن على أمل.
وتتوالى الأحداث مع الأيام، كان الأمل يضعف ويتقلص حتى أصبح في نهاية الأمر مجرد أمنية في رؤيته ولو مرة كل شهر، فقد ارتبط هناك بغادة أسكتلندية رائعة الحسن، تعمل معه في نفس المكان، وتعيش مع أسرتها في نفس المدينة، ومع كل مكالمة هاتفية كانت الأعذار تقطر جمرها داخل نفس الأم.
وبدأت المكالمات الهاتفية من جانبه تتباعد، حتى قلت، ثم انعدمت تماما مكتفيا بإرسال مبلغ من المال يعينها على مشاق الحياة، كانت تنفقه على محادثته والاطمئنان عليه هاتفيا، ومحادثة شقيقتها هناك في بلدها.

وفي إحدى مكالماته الهاتفية أخبرها بزواجه، ومع الأيام بدأت الأم تدرك وضعها الجديد، وتقبله نفسيا وتتعود عليه، لتخفف عن نفسها المعاناة التي تكابدها، لكنها لم تنس أبدا أن تدعو له في سجودها وركوعها لله.. كان ليل الشتاء يمر عليها طويلا قاسيا، ولم يكن يؤنس وحدتها ليلا سوي التهجد لله، والتضرع بالدعاء.. كانت تحاول أن تتذكر شيئا يؤنسها خلال وحدتها واستغراقها في التفكير، وكان أجمل خبر حملته ذاكرتها هو خبر قدوم أول مولود لابنها، وحفيد لها. وأصبح همها الأول هو شراء الهدايا، والملابس من معاشها الجديد، الذي تتسلمه مقابل وظيفتها الجديدة، في الإشراف على منزل أولئك العرب الطيبين الكرماء. انتبهت السيدة منى وعادت إلى واقعها، حين انتزعتها الأحداث العالمية في البرنامج الإخباري التلفزيوني، وهي ترى مشاهد القتل، والدمار، والقذائف الطائرة، التي ترسم خطوطا مضيئة في سماء مدينة سراييفو وجيب بيهاتش بالبوسنة والهرسك.. وغلبها البكاء حين شاهدت أطفالا بوسنيين، شوهت القنابل الصربية أجسادهم، ومعالم وجوههم في بشاعة وقسوة، عسكت الوجه الحقيقي للحضارة، والتقدم العلمي، الذي يرتقي بالإنسان، ويسعي إلى إسعاده، وامتدت يدها لا إراديا ضاغطة على زر إغلاقه، ثم تناولت الهاتف لتعاود الاطمئنان على الرجل الخليجي ولم يجاوبها أحد، فأغلقته وتمددت في فراشها بعد أن أطفأت نور غرفة نومها متمتمة بالمعوذات.

امتدت جلسة الأصدقاء في كوينزواي، بعد أن حضر باقي الأصدقاء حين علموا بمقدم صديقهم الخليجي، وقد دارت أحاديثهم حول شتي الموضوعات، حول أقداح الشاي المعطر بالنعناع، بعد أن تناولوا معا العشاء، والشيشة تدور بين الحضور، وكان بينهم شخص أوربي وحيد، هو السيد ويلسون أحد مسئولي دار النشر التي تتولي مهمة نشر وتوزيع الإنتاج الأدبي للرجل الخليجي، وهو الأمر الذي فرض على الحضور التحدث باللغة الإنجليزية أغلب الوقت، مراعاة لوجوده بينهم.

في تمام الساعة الثانية صباحا، بدأ الحضور بالانصراف وأصر كل من الأصدقاء العرب على اصطحاب صديقهم الخليجي لتوصيله إلى منزله بسياراتهم، إلا أنه اختار الرجل الإنجليزي السيد ويلسون لتوصيله، ولإكمال الحديث خلال الطريق حول مهام الغد.

أمام البناية توقفت السيارة، ونزل منها الرجل الخليجي مودعا صديقه الإنجليزي على أمل اللقاء في الغد، ودلف إلى شقته وعلى وجهه ابتسامة مطمئنة توحي بارتياحه.. وفي الردهة خلع معطفه ملقيا إياه على ظهر الأريكة الكبيرة، ووقع بصره على جهاز الهاتف الموضوع على المنضدة الصغيرة بجانب الأريكة، فتذكر أنه من الواجب أن يطمئن على السيدة مشرفة المنزل.

وحين هم بدق رقمها، تذكر أن الساعة قد قاربت على الثانية والنصف صباحا، فتردد وأعاد السماعة لمكانها، وأكمل تبديل ملابسه، وجلس على الأريكة مسترخيا بعد أن أشعل سيجارته، وبدأ يدخن في لذة توحي بمعنويات عالية، إلا أنه شعر بالنعاس يغالبه، فغسل أسنانه، وتوجه إلى فراشه، لينعم بنوم هانئ ودفء لذيذ، بعد أن ضبط مؤقت الساعة الموضوعة بجانب الفراش على الثامنة والنصف صباحا.

استيقظت السيدة منى من نومها على رنين الساعة الموضوعة على المنضدة الصغيرة بجانب فراشها، والتي تحمل إطار صورة ولدها شاكر. فمدت يدها وأوقفت الرنين، ونهضت من فورها، متشوقة للاطمئنان على الرجل الخليجي، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحًا، إلا أنها أجلت ذلك حتى تفرغ من حمامها، ومن ثم أدت صلاة الصبح، وارتدت ملابسها، وفضلت أن تذهب بنفسها لتعد له فطوره، حيث أحسست برغبة جارفة في نفسها لأن تفعل ذلك، وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، باعتباره أمرا عاديا وواجبا، لكنها أحست هذا الأمر وشعرت برغبتها تلك من زواية أخرى لا تدري لها كنها.. أحيانًا تشعر بأن ما يدفعها لذلك نوع من رد المعروف لهؤلاء الناس، وهي بالفعل كانت دائما ما تفعل ذلك في أثناء وجود الأسرة كلها.

لكنها وباعتبارها مازالت من داخلها امرأة شرقية، مسلمة، تستحي من وجودها مع رجل غريب عنها في مكان مغلق، وهو أمر نهي عنه دينها، برغم أنها تقريبا في سن أمه، إلا أن ذلك الأمر كان ينبع من داخلها بذلك الإحساس، وإذا لم تذهب لتعد له فطوره، فهو لن يلومها على ذلك، وليست هناك مدعاة لحساسية من هذا النوع أبداً، إلا أنها شعرت برغبتها تلك، ربما عوضها ذلك العمل عن إحساسها بأنها كانت دائما ما تفعل ذلك عند استيقاظها مبكرة في الصباح لتعد لولدها فطوره، وحمامه، وتظل منشغلة بأمره حتى يخرج من باب المنزل وتظل تتابعه ببصرها حتى يختفي عند زاوية الشارع وعن بصرها، لتظل بعدها مشاعر الأمومة ترعاه في روحها، وقلبها حتى عودته سالما... حزمت أمرها، وتوجهت بعد أن أغلقت باب شقتها إلى منزله، الذي لا يبعد سوي أمتار قليلة، وأخرجت مفتاح مسكنه الذي تحمل نسخة منه، ودلفت إلى داخل الشقة، فشعرت بهدوء يوحي أنه مازال نائماً بعد أن أدي صرير الباب حين فتح، وصوت أرضية الممر الواصل حتى الحمام، مهمة تنبيه مهذبة.

توجهت إلى الحمام، فأعدته ثم توجهت إلى المطبخ، حيث كانت قد ابتاعت بعض ما يلزم للأكلات الخفيفة، كالبيض والحليب والخبز والجبن والزبد وبعض الفاكهة. وبدأت تعد طعام الفطور في سعادة نفسية غامرة، وإذا بها تسمع رنين الساعة آتيا من غرفته. نهض الرجل من فراشه، وارتدى روبه، وشعر بوجودها حين فتح باب غرفة نومه، فجاءه صوت إعداد الطعام من المطبخ فتوجه مناديًا: الله يصبحك بالخير يا أم شاكر.

فردت عليه الصباح قائلة: حمدا لله على سلامتك، يبدو أنك خرجت، وتأخرت في سهرك بالخارج، لقد اتصلت مرتين بعد حضوري من المسجد، ومرة أخري قبل أن أنام، فعرفت أنك بالخارج. فقال لها: بالفعل لقد تأخرت حتى الثانية تقريباً؛ حيث شعرت برغبة في الخروج لرؤية بعض أصدقائي فجلست معهم.

وعموما الوالدة والجميع هناك يهدونك السلام، فردت قائلة: الحمد لله على ذلك، وقد حادثوني قبل وصولك، ليخبروني بموعد قدومك للندن، واطمأننت عليهم. واستطردت قائلة: حمامك جاهز، وفطورك أيضاً.. هل ستتناول طعام الغداء هنا؟ فأجابها قائلا: هكذا أنت دائما يا أم شاكر،

لم تغير منك حياتك هنا شيئا من طباع أمهاتنا.. دائما ما تهتمون بأمور الأبناء وخاصة الطعام.. على كل حال اصنعي طعام الغداء، (قالها عمدا وهو يعلم أنه سيتناول غداءه خارج المنزل).

وأردف قائلا: ربما أتيت في موعد طعام الغداء، وإذا لم أحضر فأرجو أن تتناولي غداءك، ولا تشغلي نفسك بي، فإن مشاغلي كثيرة، وعلى أن أنجزها، خاصة أني لن أقضي هنا في لندن أكثر من أسبوع إن شاء الله. فعقبت قائلة: إذن هيا انته من حمامك لتتناول فطورك. خرج الرجل من الحمام وارتدي ملابسه، وصلى الصبح حيث السيدة منى قد أعدت له فطورا جيدًا من البيض المقلي، والعصير الطازج وشرائح الخبز الساخن.

فسلم عليها ونقل إليها تحيات الأهل مرة ثانية ودار بعض الحوار التقليدي الذي يحدث في مثل تلك الظروف ثم سألها عن أحوالها وعن ابنها فلاحظ أن ابتسامتها تلاشت وخيمت سحابة من الحزن على وجهها فأسرع مغيراً حديثه قائلا: لا تنسي أن تجهزي طعام الغداء بيدك، وأرجو ألا تنتظريني وتناولي غداءك إذا تأخرت، وأخرج مظروفا من جيبه فوضعه على المنضدة مستطردًا في حديثه: خذي هذا المبلغ للإنفاق على احتياجات المنزل في أثناء إقامتي هنا التي ستمتد أسبوعًا تقريبًا إن شاء الله. فسكتت وبدأ يتناول طعامه.

وبعد أن انتهي سألته: قهوة أم شاي؟ فأجابها: قليلاً من الشاي... فصبت له شايه الذي رشف منه رشفة وأثني عليها قائلا: إنني أشعر الآن وكأني لم أغادر منزلي. فقالت له: على الرحب والسعة يا بني، إنني أشعر دائما بتقصيرى تجاهكم... ليتني أستطيع أن أقدم لكم ما يتوازى مع كرمكم، وطيب رفقتكم... وأردفت سائلة هل من أوامر أو طلبات ألبيها لك؟ فشكرها ونهض متأهبا للانصراف. كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والربع حين اجتاز باب البناية التي يسكنها رافعاً بصره للسماء الملبدة بالغيوم ممنيا نفسه بيوم معتدل الطقس، وهو يعلم في قرارة نفسه أن ذلك من قبيل الأمنيات التي قد لا تتحقق في هذا الوقت من فصل الشتاء، فارتدي معطفه الذي كان يحمله على يده وابتسم وهو يتذكر أن عليه ابتياع مظلة صغيرة تقيه الرذاذ والمطر المتساقط معظم فترات اليوم ماعدا تلك الفواصل الزمنية القصيرة التي تفصل بين تلك الزخات الماطرة بعضها البعض.

شعر بالهواء البارد يلفح وجهه فوضع يده اليسري داخل جيب معطفه ومضي متوجهًا إلى المستشفي القريب مترجلاً، حيث لا يبعد المستشفي عن المنزل أكثر من مائة وخمسين مترًا لمراجعة طبيبه. كان عليه عبور الشارع عند نقطة اجتياز المشاة، فتوقف إلى أن سمحت الإشارة الضوئية بذلك، وبعد لحظات كان يستقل المصعد إلى الطابق الرابع؛ حيث التقي بالطبيب في موعده ممضيا معه بعض الوقت لعرض نتائج بعض الفحوص الطبية الدورية التي أجراها في بلده قبل حضوره عليه.

لم يستغرق لقاؤه مع الطبيب أكثر من عشرين دقيقة طمأنه خلالها الطبيب على صحته ثم انصرف ليكمل ما تبقي من مهام يومه، خصوصًا إبرام اتفاق مع شركة النشر التي يرأسها السيد ويلسون لنشر وتوزيع كتابه الجديد. من أجل ذلك كان عليه إعادة الكرة واجتياز الشارع وانتظار تاكسي في الجانب الآخر المتجه إلى هامر سميث. ولم يطل عليه الوقت حيث لم تمر دقيقتان حتى أوقف سيارة تاكسي ألقي بنفسه داخلها بعد أن أبلغ سائقها بوجهته.

وفي كنج ستريت ذلك الشارع التجاري وأمام البناية التي يوجد بها مقر الشركة غادرها بعد أن نفح سائقها الجامايكي الأصل أجرته مضيفًا إليها بقشيشًا جيدًا ظنه السائق خطأ في احتساب الأجرة، فمازحه الخليجي قائلا: إنها لك هل نسيت أنني ملون مثلك، فضحك السائق قائلا وهو ينطلق بسيارته: يوماً سعيداً يا سيدي. دلف الخليجي إلى البناية بعد أن ضغط زر الجرس على بابها الخارجي وفتحته له السكرتيرة - وبعد أن عرَّفها بنفسه - قائلة: مرحبا يا سيدي تفضل، إن السيد ويلسون ينتظرك.

صعد الدرج المؤدي إلى الطابق الأول حيث كان السيد ويلسون ينتظره على باب مكتبه قائلاً: مرحبا بك، أتمنى أن تكون قد اسمتعت بنوم هادئ، يبدو أن إرهاق السفر والسهر معا يوم أمس جعلاك تنام طويلاً. فرد قائلا: في الحقيقة لقد استيقظت من نومي تقريباً في الثامنة، إلا أنني أنجزت بعض المهام التي كان يتوجب على إنجازها قبل حضوري وبالفعل حصلت على قسط معقول من الراحة.

جلس على المقعد المواجه لمكتب السيد ويلسون بينما ترك السيد ويلسون مقعده خلف المكتب وجلس على المقعد المواجه له وهو يبتسم قائلا: أرجو أن نحظي بطقس معتدل نري فيه الشمس، فربما تكون قد أحضرتها معك من بلادك. فضحك معقبا: أتمنى ذلك... إن الغيوم المتواصلة والجو الرمادي الدائم يشعرني ببعض الكآبة هنا، برغم أننا نسعد بهذا الطقس في بلادنا خاصة إذا أمطرت في فصل الشتاء لكننا نتمناه أكثر هناك في فصل الصيف. امتدت يد السيد ويلسون لتضغط على زر صغير فتح على أثرها باب المكتب وأطلت منه السكرتيرة فسأل السيد ويلسون قائلا: عزيزي، ماذا تريد أن تشرب؟ فأجاب قائلا وهو ينهض من على مقعده ليخلع معطفه: شايا أحمر من فضلك، وأسرعت السكرتيرة فتناولت منه المعطف وعلقته على مشجب في الجدار ثم انصرفت مغلقة الباب خلفها وهي تبتسم في تكلف واضح.

بدأ حديثهما حول الكتاب الجديد وسياسة توزيعه بعد طبعه وترجمته فيما بعد، وأخذ السيد ويلسون يناقشه حول فحوي روايته ومضمونها حيث أعد أحد المختصين العرب العاملين بالشركة تقريراً موجزاً باللغة الإنجليزية لمضمون الرواية وقدمه للسيد ويلسون الذي أثني على الفكرة، ثم غمز بعينيه ضاحكاً وهو يخاطبه قائلا: سيدي، ألا ترى أنك أخذت منحيً منتقداً لحضارة الغرب في سياق روايتك ومضمونها؟ ابتسم وهو ينظر إلى السيد ويلسون نظرة طويلة ثم اعتدل في جلسته على المقعد متكئا بساعده الأيمن على حافة المنضدة بجانبه وهو يميل إلى الأمام بوجهه مقتربًا من السيد ويلسون مجيبًا وباقتضاب يحمل مغزى خاصا:

أحقا ما تقول؟ وهل هذا ما فهمت من مضمون الرواية؟ فأسرع السيد ويلسون بالرد قائلا: معذرة، ربما لم يكن الأمر كذلك بالفعل ولكن... ثم تردد في إكمال كلامه وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة ودخلت السكرتيرة حاملة بيديها الشاي الذي وضعته أمامه والقهوة السوداء أمام السيد

ويلسون ثم انصرفت بهدوء بعد أن شكرها، وتحول بنظره إلى السيد ويلسون ليستمع إلى رأيه الذي لم يكتمل، فاستطرد قائلا: أنا لم أقصد العداء بمعناه الحرفي على وجه التحديد.

إذا كنت تتخيل أني أعني العداء في شكل الانتقاد الذي وجهته من خلال التعرض لسلبيات الحضارة الغربية وجوانبها الإنسانية القائمة.. أنا في الحقيقة قصدت انحيازا منك إلى تراث مجتمعك وثقافته، هكذا فهمت من التقرير الذي أعده مسئول عربي الأصل في فرع الشركة بمدينة ليفربول. هنا أشار رافعا يده اليمنى للسيد ويلسون وهو يقول: معذرة إن قطعت حديثك يا صديقي ويلسون، أنا أفضل أن تقرأ الرواية بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية وبشكل متكامل؛ فربما لم يوفق موظفكم العربي الأصل في إيصال الفكرة والمضمون بشكل صحيح.
نظر السيد ويلسون إليه بعد أن شعر أن الاستطراد في الحديث غير ذي جدوى حيث كانت حجة الخليجي مقنعة وعلى صواب في رأيه، لكنه فجأة ابتسم حيث لمعت في ذهنه فكرة هائلة وصائبة أضمرها في نفسه ثم قال والابتسامة مازالت على شفتيه: على أي حال ومهما كان الأمر فإننا في النهاية نسعى إلى النجاح معا.
فأسرع الخليجي معقبا وهو يشعل سيجارته الثانية: اسمع يا سيد ويلسون... لابد أن أفهمك شيئًا في غاية الأهمية ومن الضروري لكل إنسان أن يفهمه وهو الحقيقة المجردة التي تبيح لنا وتتيح في نفس الوقت الانحياز إلى الصواب بقوة هائلة لا نستشعرها، وهي في نفس الوقت التي تتميز فيه بالقوة المطلقة وتتسم باليسر والسهولة تؤدي مهمتها وتؤتي ثمارها... تلك الحقيقة هي الإيمان، ودعني أفسرها، أعني كلمة الإيمان كما أفهمها مجردة. ثم سحب نفسا طويلا من سيجارته واستطرد قائلا: إن الإيمان هو القناعة العقلية والنفسية بشيء ما سواء أكان ذلك فكرًا أم عملاً أم سلوكا يتطابق مع ما يقبله العقل وسلوكيات الحياة وطبيعتها، ومن ثم يتحول إلى الاعتقاد الذي يترجم بشكل طبيعي إلى سلوك وتطبيق، هل توافقني على هذا التعريف المبسط للإيمان يا سيد ويلسون؟ دعنا نتفق أولاً.
هز السيد ويلسون رأسه وهو يهمهم علامة على الإيجاب، مكتفيًا بذلك بشكل يدعو محدثه إلى الاستطراد في الحديث. فقال الخليجي: بناء على إيماني وقناعتي واعتقادي فإنني وباستقراء مبسط للمستقبل الإنساني في ظل مشاهد تاريخية ويومية وتجارب حية مارستها الحضارة القائمة ومازالت صنعها الغرب، لا شك في أنني أري سحباً شديدة القتامة والغموض تلف آفاق المستقبل الإنساني وبشكل يبعث بالرجفة والخوف في أوصال ذوي الفكر وأصحاب المعرفة والحكماء من البشر.
وعلى ذلك ومن هذا المنطلق أود أن تتأكد من أنه ما من إنسان سَوي على وجه الأرض إلا ويتمنى السعادة للبشرية في ظل حضارة إنسانية حقيقية تعطي الإنسان وتغذيه في روحه وعقله وإنسانيته بشكل يتوازى مع عطائها في الوسائل والأشكال التي نراها.
وبتفصيل أوضح اسمح لي يا سيد ويلسون أن اختصر لك المسألة، إن الحضارة الإنسانية التي يشهدها العالم الآن والتي يقودها الغرب أعطت بالفعل، ولكن عطاءها اقتصر على الوسائل فقط وتجاهلت الإنسان تمامًا كروح ومشاعر وقيم ومبادئ، نعم تجاهلت الدف الإنساني نفسه وانتزعت بالتالى في غمرة تسارعها إنسانية الإنسان وأحاسيسه الراقية. بدت الحيرة على وجه السيد ويلسون وساوره شعور بأنه غير مستعد لنقاش من ذلك النوع في هذا الوقت بالذات، وأحس أن عليه تغيير دفة الحديث وبسرعة؛ فبادر إلى القول: نعم اسمح لي يا سيدي أن نؤجل الحديث، أقصد النقاش في هذا الموضوع إلى وقت آخر ودعنا الآن نناقش تفاصيل العمل؛ فمهمتنا معاً هي السعي إلى تحقيق عمل جيد يحقق طموحاتنا معا في تحقيق انتشار ناجح لكتابك الجديد.
قاربت الساعة على الواحدة ظهرا حين انتهي الرجلان من النقاش حول تفاصيل العمل كافة، ولم يتبق سوى اجتماع آخر في مرحلة لاحقة يضم مديري أفرع الشركة بكبرى المدن البريطانية على أن يتم ذلك في أقرب فرصة ممكنة. بعد ذلك لملم السيد ويلسون أوراقه من على المنضدة وهو ينظمها في ملف خاص بينما كان الرجل الخليجي يراجع ورقة في يده، وضغط السيد ويلسون على زر جرس خاص استدعى على أثرها سكرتيرته التي ما لبثت أن فتحت عليهما باب المكتب فسألها إن كان هناك شيء مهم يخص العمل كمواعيد أو التزامات، فأشارت له بأن كل المواعيد مؤجلة حتي الرابعة بعد الظهر حسب تعليماته، وأخبرته أيضاً بوصول السيد شاكر مسئول أحد الفروع بالشركة الأم فأشار لها بإبهامه الأيمن شاكراً، وظلت واقفة ولم تنصرف.
ووجه حديثه إلى الرجل الخليجي قائلا: أرجو أن نحتفل معا باتفاقنا من خلال تلبيتك دعوتي على الغداء. فابتسم الخليجي قائلا: بكل سرور، ولكني أخشي أن يكون على حساب وقت العمل. فرد ويلسون وهو يرفع يده اليمنى مبتسما: لا عليك إنه أيضًا من صلب عملنا أن تقبل دعوة منى على الغداء خاصة أنني أعرف مطعماً رائعا يقدم أطعمة رائعة في منطقة نايتس بريدج، إضافة إلى الحلوي الشهيرة التي يعرف بها.
فابتسم الرجل الخليجي قائلا: لا أظنه إلا مطعم سان لورنزو، إنني أتناول فيه أحيانا طعام العشاء، وإنه بالفعل يتسحق ثناءك، إذن امنحني عشر دقائق لأؤدي الصلاة حتي لا يفوتني موعدها في غمرة الانشغال. وانتحي ركنا صلي فيه الظهر والعصر جمع تقديم. واستدار السيد ويلسون موجهًا حديثه إلى سكرتيرته التي ظلت واقفة لتتصل بالمطعم لحجز مائدة لثلاثة أشخاص، ثم استطرد قائلا: استدعي السيد شاكر بعد عشر دقائق. والتفت إلى الرجل الخليجي بعد أن أدي صلاته قائلا: سأعرفك على أحد مسئولي أفرع الشركة بليفربول وأحد المتميزين في العمل الذين ينتظر لهم مستقبل جيد هنا.
انتبه الرجل الخليجي مقطبًا حاجبيه وهو ينظر باتجاه الباب، حيث كان السيد شاكر يدلف في تلك اللحظة محييًا الرجل الخليجي بلغة عربية سليمة وهو يبتسم ويمد يده لمصافحته، ثم تحول بعدها لمصافحة السيد ويلسون وهو يحادثه عن أحوال العمل وآخر مستجداته في مكتب ليفربول.

أشار السيد ويلسون لشاكر بأن يجلس قليلاً؛ فهم في طريقهم إلى الانصراف لتناول طعام الغداء معاً، فعقب شاكر قائلا وهو ينظر بابتسامة نحو الرجل الخليجي: إنني حقا محظوظ فلم أكن أتخيل أن ينتظرني طعام الغداء بدعوة كريمة، إنني بالفعل أشعر بالجوع.
وفي تلك اللحظة هم الجميع بالانصراف بعد مراسم التعارف وتبادل المجاملات. لم يدر بخلد الرجل الخليجي أن هذا الشاب الوسيم الذي يتحدث العربية ذا الملامح الشرقية ابن السيدة مني. فلقد تخيله واحدًا من آلاف العرب الذين يعيشون في بريطانيا ويعملون هناك.
وقد دار حوار ودي قصير بينهما سأله خلاله الرجل الخليجي بالعربية قائلا: من المؤكد أنك عربي. فأجاب قائلا: لا، أنا إنجليزي ولدت هنا وعشت وتربيت. قال الرجل الخليجي: نعم أعلم ذلك ولكن أصولك عربية فاسمك ولغتك وملامحك تشهد بذلك. فابتسم شاكر في صمت، وعلى أثرها اكتفي الرجل الخليجي بذلك، لكنه تذكر التقرير الموجز الذي أعده موظف الشركة عن كتابه فعاود سؤاله قائلا: اسمح لي يا سيد ويلسون، أليس السيد شاكر هو الذي أعد التقرير؟ فأجاب قائلاً: نعم إنه هو المسئول عن إعداد التقرير ومراجعة النسخة العربية من الكتاب.
هز الرجل الخليجي رأسه مؤجلاً حديثه، بينما تواصل حديث آخر بين السيد ويلسون وشاكر حول موضوعات أخرى كان يقطعها الصمت بين وقت وآخر، أو حديث عابر حول زحام المرور في بعض المناطق وسوء الأحوال الجوية والأمطار التي تسبب بعض حوادث المرور.
توقف السيد ويلسون بسيارته في مكان يبعد قليلاً عن مطعم سان لورنزو؛ حيث لا مكان هناك لتوقف السيارة بسبب الازدحام، ونزل الثلاثة منها مترجلين إلى المطعم، وما هي إلا لحظات حتي كان النادل يشير عليهم بترك معاطفهم عند الموظفة المختصة في مكان ما على يسار المدخل، ثم هبطوا معًا إلى الطابق السفلي حيث الدفء والهدوء.
لم يكن المطعم مزدحمًا برواده في ذلك الوقت، بل كان هناك عدد لا بأس به من الزبائن خاصة تلك الأسرة التي تجاورهم في مائدة قريبة، والتي تضم رجلاً تبدو عليه ملامح قوة زائلة يبلغ عمره تقريباً الخامسة والستين، ذا منكبين عريضين وجسد رياضي لم تستطع وسامته أن تخفي سنه خاصة تلك التجاعيد التي غزت رقبته، وزوجته التي قاربت سنه لكن ملامح وجهها أظهرت بوضوح كبر سنها.
ابتسم الرجل الخليجي محييا جيران مائدته فبادلته السيدة تحيته والتفت زوجها مبتسماً إلى تجاه مائدة الخليجي ورفاقه الذين شرعوا في تفحص قوائم الطعام الموضوعة أمامهم على المائدة، بينما كان الجرسون يقف مستعدا لتسجيل طلباتهم. ولم ينس السيد ويلسون إبداء ملاحظة حول الاهتمام بطبق حلوى سان لورنزو.
ابتسم الخليجي قائلا: لقد أصبت يا سيد ويلسون بشرط أن يكون طبق الحلوى في نهاية الطعام؛ حيث أخشي أن تنوي أن نتناولها قبل أن نطلب طعام الغداء حتي تبدو فاتورة الحساب معقولة في نهاية الأمر حيث لن نستطيع أن نستمتع بالطبق الرئيسي بعدها... ابتسم السيد ويلسون على أثرها ابتسامة واسعة احمرت بها وجنتاه بينما ضحك شاكر من التعليق الذي أبداه الخليجي... وبدرت من الرجل الجالس بجوارهم وزوجته همهمة مضحكة التفتوا على أثرها ليجدو أن العجوز وزوجته يبتسمان في مودة وهما ينظران باتجاههم، فبادرهم السيد ويلسون قائلا: هكذا دائما يتهمون الإنجليزي بالبخل ونحن أبعد ما نكون عنه.
ثم أردف قائلا: ألست إنجليزيا يا سيدي؟ فرد العجوز: ربما كانت جذوري أيرلندية، ولكني أمريكي جئت وزوجتي لنقضي بعض الوقت في أوربا، وها نحن في لندن بعد أن زرنا فرنسا وأسبانيا، وعلى كل حال فالأمر يتعلق بالحرص، الأمر الذي قد يدعو البعض لتسميته بخلا.
وهنا تدخل الخليجي ليقول في جدية ارتسمت على وجهه: تلك لغة الثقافات التي تختلف دائما في التفاصيل الصغيرة للحياة، فلكل شعب من شعوب الأرض ثقافته وعاداته وتقاليده التي تختلف عن الآخرين ومفاهيمه التي نشأت معه ونشأ معها منذ القدم.
فسأله العجوز الأمريكي: يبدو أنك شرقي يا سيدي، فبرغم لغتك الإنجليزية الراقية إلا أن سجيتك وشكلك يوحيان بشرقيتك؟ فرد الخليجي وهو يبتسم في ثقة: لقد اقتربت كثيرًا يا سيدي، أنا عربي. هز الأمريكي رأسه وهو يقول: لقد قضيت فترة من عمري في أثناء خدمتي في السلاح الجوي الأمريكي؛ حيث كنت طياراً في إحدى القواعد الجوية الموجودة في تركيا.
لكن بالمناسبة اسمح لي أن أسالك سؤالا صريحا ودونما حرج باعتباركم مسلمين، هل أنتم بالفعل تضمرون الكراهية للغرب وحضارته وتريدون تدميرها؟ فوجئ الخليجي بسؤال العجوز الأمريكي وطالعه بنظرة ممزوجة بالدهشة والعتاب معا، وارتد بظهره إلى مسند مقعده ليفسح المجال للجرسون الذي بدأ بإحضار أطباق الطعام وتمالك نفسه ثم رد على الأمريكي قائلا: اسمح لي أولاً أيها الجنرال أن أذكرك بجزء أساسي وعظيم من تاريخ أوربا، وبالتحديد بداية نهضتها في القرن الثالث عشر حين أثارت فلسفة الفيلسوف العربي ابن رشد وكتبه تياراً عاصفًا من الوعي نفض غبار الجهل عن أوربا الجاثمة في ذلك الوقت وقبله تحت سطوة إرهاب الكنيسة وتعاليمها خلال القرون الوسطي في أوربا، وأظنكم تدرسون هذه الحقبة التاريخية الفاصلة في مدارسكم، وبسبب تأثير ذلك الفيلسوف القرطبي المسلم في أوربا سميت تلك الحقبة التي أثارت فيها كتبه عاصفة من الوعي في أوربا بالرشدية، وما لبثت أن أصبحت تلك الكلمة رمزاً للفكر العقلاني المتحرر.
واقرأ أيها الجنرال كتاب أرنست رينان ومجلدات ببيرماندونيه حول الرشدية في القرن الثالث عشر، حتي وصل الأمر بتأثير أفكار هذا الفيلسوف المسلم أن تحولت إلى فكر سياسي، وكانت تشكل أحد الروافد المهمة لعصر النهضة، حيث كان الغرب الذي تتحدث عن حضارته بحاجة ملحة وماسة لفكر عقلاني متحرر، وما أن وقع على ابن رشد - وأذكرك أنه عربي مسلم - ما أن وقع عليه الغرب وعلى تأويله العقلاني الخالص لأرسطو حتى استولى عليه وجعله رمزًا للتحرر والفكر العقلاني في كل الأمور، ثانياً أذكرك أيها الجنرال أن جامعات الغرب بدأ تأسيسها خلال القرن الثالث عشر حين اطلعت أوربا على الرفاهية والحضارة المنتشرة في بلاد العرب والمسلمين خلال الحروب الصليبية، وأعتقد أنك تعلم يقينا أن أول جامعة تأسست في أوربا هي جامعة بادوا في إيطاليا، وبعد ذلك: أنشئت جامعة باريس وتلتها أوكسفورد ثم توالت الجامعات الأخرى.

في هذه الفترة أيها الجنرال التي شهدت حركة بناء الجامعات بدأت معها حركة ترجمة هائلة ما كانت الجامعات الأوربية لتحظي بقيمة علمية بدونها، وهذه الترجمات كانت تترجم من العربية إلى اللاتينية، حيث كان الغرب الذي تتحدث عن حضارته أيها الجنرال قد عرف ومنذ القرن الثاني عشر بعض كتب ابن سينا في الطب، وكانت أهم الترجمات لكتب ابن الهيثم في البصريات، ثم ترجمت أيضاً كتب باقي العلماء العرب كالكندي والفارابي والغزالي، وبالنسبة لفلاسفة الأندلس فقد عرف الغرب أيها الجنرال أولا ابن ميمون.
وكان أهم مراكز الترجمة في أوربا في طليطلة وجنوب إيطاليا وصقلية. ثم بعد ذلك عرف الغرب ابن ماجه وابن طفيل حين قرأ الغرب ما كتبه عنهم ابن رشد. وأضاف الخليجي بنبرة تحد قائلا: خلال هذه الحقبة أيها الجنرال لعبت ترجمة شروحات ابن رشد لكتب أرسطو ذلك الفيلسوف العربي المسلم الدور الأهم، ودعني أقل لك شيئا أيها الأمريكي، هل تعلم أن الكتب الثلاثة الرئيسية لأرسطو والذي شرحها وفسرها ابن رشد - وهي بالتحديد كتاب النفس وكتاب الطبيعة وكتاب ما بعد الطبيعة- لم يكن الغرب يعلم عنها شيئا في ذلك الوقت، وشكلت تلك النصوص العلمية العربية بتدفقها على أوربا خلال القرن الثالث عشر صدمة حضارية هائلة لتراثكم الفكري والحضاري الذي بنيتموه خلال ثمانية قرون منذ القديس أوجستين، حيث كانت الكنيسة تملك منفردة العلم على مدى العصور الوسطي في أوربا، وحيث كان الناس يعيشون هنا في نظام إقطاعي شامل يتنافي مع وجود دولة حقيقية. وربما تسألني عن العلم الذي كانت الكنيسة تملكه، لقد كان العلم اللاهوتي التي أخذت منه ما يتماشي مع تعاليمها وتركت جانبًا كل ما يخالف ذلك.
هكذا أيها الجنرال خلَّف ذلك التبادل الحضاري مع العرب الذي حدث خلال تلك المرحلة واقعًا جديداً أشرقت معه شمس إنسانية جديدة تختلف تماماً عن كل ما شهده الغرب من قبل. بل وأقول لك أيها الجنرال بكل ثقة: إن الحضارة الغربية المعاصرة بدأت مع ترجمات علوم العرب ونقلها، وعد يا سيدي إلى علمائكم وفلاسفتكم وتاريخكم لتتأكد من صدق ما قلت.
والآن هل تستطيع مع ذلك أن تعيد طرح سؤالك الذي يشبهنا في محتواه ومضمونه بأمة همجية لا حضارة لها ولا تاريخ؟ تلعثم الأمريكي وتغير لون وجهه وهو يبتسم محاولاً تعديل لغة الحوار وتهدئته قائلا: ربما كان ذلك صحيحا إلى حد ما، ولكن ذلك كان في عصور قديمة، وقد تغيرت الظروف والأوضاع، وها أنت يا سيدي ترى وتسمع ما يفعله الإرهابيون المسلمون والعرب من تدمير في بلادنا وموجات العداء التي نستشعرها دائما منكم تجاهنا وتجاه الغرب وحضارته.
ودعنا نتعامل مع فرضية الحدث والفعل وليس مع أحداث جرت منذ القدم.. نحن نتعامل مع أحداث العصر ومشاكله، ثم لا تنس أنه برغم مشاركتكم قديما في بناء الحضارة كما تقول إلا أنه يجب الاعتراف بأن الحضارة الحقيقية الذي يعيشها العالم حاليا هي من صنع الغرب وبها تسيد العالم.
رد الخليجي قائلا وهو يبتسم: دعني أذكرك يا سيدي بأن الإرهاب ليس من الإسلام في شيء، وليتك تفهم حقيقة الإسلام وجوهره لتعرف مدى براءة الإسلام من الإرهاب والتدمير والقتل، ودعني أسألك: هل الإرهاب مقتصر على بلاد المسلمين؟ وألا يوجد في بلادكم والغرب عامة إرهاب وإجرام منظم وأصيل؟ ودعني أيضاً أجيب على ذلك: إنكم تلصقون تهمة الإرهاب بالإسلام لأنكم تريدون ذلك من منطلق نظريتكم المعروفة بخلق عدو جديد بعد اندحار الشيوعية، لكن ما هي إجابتك على المذابح التي ترتكبونها في حق المسلمين في البوسنة والهرسك والتي تحدث تحت سمعكم وبصركم؟ وأيضاً التي تجري في فلسطين ضد العرب المسلمين وعلى أيدي اليهود والذين تؤيدونهم وتدعمونهم بكل ما أوتيتم: سياسيا واقتصاديا وعسكريا؟ إننا نحن المسلمين يا سيدي لا نستبعد أبدًا أن من يسمون بالإرهابيين المسلمين هم من صناعتكم تستخدمونهم وقتما تشاءون لتحقيق أغراض الغرب والصهيونية العالمية لتشويه صورة العرب والمسلمين وهم منهم براء.
دار همس بين رواد المطعم الذين استمعوا للحوار، وتطلعت بعض الأنظار تجاه المائدتين اللتين يجلس عليهما المتحاورون، وبعض أصحاب النظرات كانت تبدو عليهم ملامح تشجيع لاستمرار ذلك الحوار المفاجئ الذي أثاره الأمريكي. وعلى أثر حديث الأمريكي انبري الخليجي قائلا: اسمح لي سيدي الجنرال، أنا لم أتعرف على اسمك؟ أجاب الأمريكي: اسمي ريتشارد وزوجتي باربارا. فرد الخليجي: حتي نستكمل حوارنا الشيق أرجو أن تقبل دعوتي على العشاء غدا في منزلي وهو قريب في شارع كروموبل، وهذا هو السيد ويلسون مدير دار النشر التي تتولي نشر كتبي وذاك مساعده السيد شاكر. - أفهم من ذلك أنك كاتب يا سيدي. - يقولون ذلك، قالها وهو يبتسم. فنظر الأمريكي إلى زوجته التي ابتسمت وأومأت برأسها علامة على الموافقة.
تدخل السيد ويلسون في هذه اللحظة وهو مندهش منبها الحضور للبدء في تناول طعامهم الذي بدأ يبرد، في حين كانت انفعالات شتي تدور في عقل السيد شاكر الذي بهره الحديث وصدمه في نفس الوقت، وبدأ الجميع تناول الطعام الذي تخللته مداعبات ودية وضاحكة بين الأمريكي وزوجته من ناحية وبين الخليجي وأصحابه، اكتمل من خلالها التعارف وتبادل العناوين وأرقام الهواتف وتحديد موعد اللقاء مساء الغد، ذكر خلالها الأمريكي أن هناك بالفعل أسئلة كثيرة واستفسارات قد تكون صريحة ومحرجة سوف تثار خلال نقاش مفتوح، وكان رد الخليجي: يسعدني أن تفرغ ما في جعبتك يا جنرال، وعلى الرحب والسعة.
ووجدها الخليجي فرصة جيدة لن يستطيع السيد ويلسون الاعتذار عنها هو والسيد شاكر، فوجه حديثه وهو يرفع كلتا يديه قائلا: فرصة جيدة يا صديقي أن تتناول معي العشاء أنت وشاكر غداً وسيكون بصحبتنا الصديق الأمريكي الجديد وزوجته، وسوف نتناقش نقاشاً مفتوحًا في الغد، وربما تخليت أنت والسيد شاكر عن تلك الفكرة التي تعتقد أنني ضمنتها روايتي برغم أني لاحظت - وربما أكون مخطئا في ملاحظتي - أنك ربما كنت تتفادى حوارا حول قضية قد تتعارض مع عملك في النشر وقد تؤثر عليه، لكن تأكد أننا حتي لو اختلفنا - وبأي درجة - فلن يكون لذلك تأثير على علاقتنا العملية.. ثم صمت وهو ينظر بتركيز إلى وجه السيد ويلسون الذي كان يحرك شوكته في طبقه شبه الفارغ وهو يبتسم بطريقة عبثية.

ثم استطرد وهو يقول: وأرجو أن تقرأ تقريرك حول الرواية وتناقشه مع مساعدك المختص، وليكن عشاء الغد فرصة لصداقة جديدة، نظر إليه ويلسون وهو يضع شوكته أمامه ويضطجع بظهره على مسند مقعده متوجها ببصره إلى شاكر: نقبل دعوتك أيها الصديق وبكل سرور، فأنتم العرب دائما تدهشوننا بدفء مشاعركم.

إذن إلى الملتقي غداً في التاسعة مساء، احضر ومعك السيد شاكر رأسا إلى منزلي وسأكون في انتظاركما. وقد وجدها السيد ويلسون فرصة رائعة خاصة أن السيد شاكر هو الذي أعد تقريره المبدئي حول الرواية، وهو الذي عرض النقاط التي أثارها ويلسون مع الرجل الخليجي في مكتبه في أثناء اللقاء الصباحي الذي تم بينهما في مكتبه بمقر الشركة. دفع السيد ويلسون فاتورة الحساب ثم نهض الجميع وكان الأمريكي وزوجته قد انصرفا قبل قليل بعد أن ودعا الأصدقاء الجدد وأخذ كل منهم معطفه وانصرف الجميع سيراً على الأقدام إلى السيارة، وفي أثناء سيرهما وجه الرجل الخليجي حديثه للسيد شاكر قائلا: ربما لم أتعرف عليك جيداً حتي الآن؛ حيث إنها المرة الأولى التي نلتقي فيها، ولكن حضورك لتناول العشاء غدا بمنزلي سيكون فرصة جيدة لتوثيق عري صداقتنا وللتعرف على بعضنا البعض بشكل أفضل، وعموما أنا أشعر نحوك بفضول ربما كان مرده متعلقا باهتمامي بك.

ورد عليه شاكر قائلا: اسمح لي يا سيدي، برغم أنني هنا لمهمة تتعلق بالعمل، وبرغم قصر الوقت الذي قضيته معك إلا أنني سعيد بمعرفتك ويسعدني أن أكون معكم على عشاء الغد. وصل الجميع إلى السيارة حيث أصر السيد ويلسون على توصيل الخليجي إلى محطة مترو الأنفاق في جلوستر رود ليستقل القطار متوجها إلى ميدان البيكاديللي للقاء صديقه القديم ذلك الفنان التشكيلي الجالس هناك ضمن التجمع الشهير للفنانين والذي يعتبر أحد المعالم السياحية بمدينة لندن.

وأمام محطة القطار في جلوستر ترجل الخليجي من السيارة مودعاً صاحبيه، ثم توجه ليستقل القطار المتجه إلى ميدان البيكاديللي، وبينما هو يقف منتظرا دوره ليحصل على بطاقة القطار، وحيث كان يقف أمامه ثلاثة أشخاص بينهم سيدة إذ يجد نفسه فجأة في مواجهة السيد ياماتو، ذلك الياباني رفيق الطائرة الذي انتهي لتوه من الحصول على بطاقة الركوب واستدار لينصرف من أمام موظف المحطة، وخلال برهة قصيرة كانت الدهشة قد أصابت كليهما.

حيا الخليجي السيد ياماتو الذي كان ينظر نحوه بابتسامة ممزوجة بالدهشة ثم تقدم منه مصافحًا وهو يقول: ها نحن معاً مرة أخرى يا سيد ياماتو، كم هو صغير هذا العالم! فمد ياماتو يده مصافحًا وهو يقول: لطيف أن ألتقيك مرة أخرى.

يا إلهي، بالفعل كم هو صغير هذا العالم! وترك الخليجي دوره وهو يحادث الياباني سائلا إياه: هل تسكن في هذه المنطقة؟ وإلى أين أنت ذاهب الآن؟ فرد ياماتو قائلا: كانت جولة رائعة في متحف التاريخ الطبيعي القريب من هنا ولم تكتمل، وسوف أعود لأكمل زيارته غداً، أما الآن فأنا ذاهب إلى منطقة البيكاديللي.

فضحك الخليجي قائلا: إنها وجهتي أيضاً، دعني أرافقك هذه المرة أيضاً لكن في قطار. وضحك الاثنان وسنحت الفرصة في تلك اللحظة للخليجي ليحصل على بطاقته بسرعة وتوجه الاثنان نحو قطار البيكاديللي. وما هي إلا دقائق حتي كان الرجلان يجلسان على مقعد واحد في طريقهما إلى البيكاديللي حيث سأله الخليجي: هل لديكم عمل هناك الآن؟ فرد الياباني قائلا: إن منطقة البيكاديللي يوجد بها أكبر تجمع للشركات اليابانية في لندن بالإضافة أيضاً إلى الفنادق التي يفضلها اليابانيون. - بالفعل أرى دائماً كثيرا من اليابانيين في هذه المنطقة، حتى أنني مرة دخلت إلى مكتبة يابانية هناك: لكني لم أستطع شراء كتب منها؛ لأنها تقريباً كلها باللغة اليابانية.

فقال الياباني: نعم، إن هذه المكتبة لخدمة اليابانيين، وتوجد بها تقريباً كل الصحف والمجلات إضافة إلى الكتب اليابانية ثم استطرد قائلاً: هل زرت مركز »SOGO«؟ فقال الخليجي: »SOGO« لقد قرأت هذا الاسم من قبل ربما هناك، نعم هناك في البيكاديللي وقد زرته مرة من قبل لا أذكر متي كان ذلك، لكني أعتقد أنه مركز تجاري ياباني. فقال الياباني: هذا صحيح، وبه العديد من المنتجات اليابانية، إنني ذاهب إلى هناك الآن لمقابلة صديق لي في مجال العمل وأنا سعيد برؤيتك. فرد الخليجي قائلا: إننا نحن العرب نكن شعوراً عميقاً وإعجاباً خاصا بالشعب الياباني، ونحن العرب عامة نملك عاطفة جياشة ومشاعر طيبة خاصة إذا تعلق الأمر بشعوب الشرق، فنحن أكثر قرباً في المشاعر والخصائص الإنسانية، ثم استطرد قائلا: إن الإنسان ليشعر بوطأة الاغتراب ووحشته حين يكون بعيدًا عن بلاده وموطنه خاصة في هذا العالم غير الآمن.

ابتسم ياماتو وهز رأسه بطريقته اليابانية قائلا: ربما كان اليابانيون أكثر إحساسًا بالغربة؛ فقد عشنا معزولين عن العالم تماماً منذ بدأ التاريخ يسجل أحداثه وحتى بداية هذا القرن حينما انطلقنا إلى كوريا والصين، ومن ثم بدأ العد التنازلي للأحداث التي انتهت بالحرب العالمية الثانية ومآسيها التي تجرعت اليابان منها النصيب الأوفر. فبادر الخليجي إلى القول: لكنكم أنهيتم تلك المآسي يا سيد ياماتو بأن أصبحتم تتربعون على قمة شعوب العالم المتقدمة، وعوضتم خسارتكم بجهودكم الرائعة ودأبكم العظيم الذي أثمر تقدما ورقيا لم يشهد له العالم مثيلاً.

ضحك الياباني وافتر ثغره عن ابتسامة خجول وقال: إنها الروح اليابانية التي تأصلت في النسيج النفسي والتراث الياباني على مر الزمن.

همهم الخليجي موافقًا وهو يقول: نعم، صدقت يا صديقي، إنها الموروث الروحي والتاريخي الذي لم تلوثه أفكار دخيلة. ثم ردد بينه وبين نفسه: حتى لو كانت تعاليم روحية من صنع كونفوشيوس. وصل القطار إلى المحطة قبل الأخيرة وسأل الياباني رفيق رحلته عن المدة التي سيقضيها في لندن فأجاب الخليجي ستمتد أسبوعًا تقريبًا. فقال الياباني: أتمنى لك إقامة طيبة.

أما أنا فربما طالت زيارتي قليلاً وأنا سعيد بلقائك مرة أخرى، وأخرج من جيبه بطاقة ناولها للرجل الخليجي قائلاً: هذه بطاقتي وبها عنوان العمل والمنزل في أوساكا وأرقام الهواتف أيضاً، فأخذها قائلاً: - أظن أنني أخذت منك بطاقة من قبل ونحن في الطائرة، على أي حال لا بأس سوف آخذ هذه أيضًا ولك مني أيضًا واحدة. وعلى الفور أخرج الخليجي بطاقته وأعطاها لليابانى قائلا: وتلك بطاقتي أيضاً في لندن،

ولمعت في ذهنه فكرة دعوته على عشاء الغد وبالفعل دعاه للعشاء معه بمنزله في الغد. فلم يعط الياباني وعدا مؤكدا بالحضور، ولكنه وعد بالحضور فيما إذا لم يكن لديه أشغال وارتباطات مهمة، وذكر أنه سوف يهاتفه قبل التاسعة. توقف القطار في محطة البيكاديللي ونزل الاثنان معا وتصافحا خارج السياج، وتوجه الرجلان معا إلى الدرج المؤدي إلى الجهة اليمنى وصعدا معا ثم افترقا متصافحين على أمل اللقاء.
توجه بعدها ياماتو يساراً نحو»SOGO» والخليجي يمينا لينحرف بعدها يساراً داخل الشارع المزدحم المؤدي إلى صديقه الفنان التشكيلي الجالس هناك مع لفيف الفنانين يرسم ببراعة وجوه الناس، بينما الزوار من السياح يقفون مندهشين من براعته وسرعته في رسم لوحات من الفحم للهواة وللسياح الذين يأخذونها معهم خلال عودتهم لبلادهم تذكاراً لزيارتهم لندن وللبيكاديللي الشهير برواده من مختلف بلاد العالم والمزدحم بالملاهي والنوادي الليلية والمطاعم.
وهناك وجد صديقه منهمكا في رسم فتاة جالسة أمامه، فوقف خلفه مع الجموع في هدوء حتي لا يلاحظه فيقطع عليه تركيزه حتي ينتهي من علمه.
* * *
أنهت السيدة منى أعمالها في منزل الخليجي وكانت في حالة نفسية ومعنوية عالية، ولم يستغرق الأمر منها أكثر من نصف ساعة بعد أن رتبت المطبخ وغرف النوم واطمأنت على عملها، ثم توجهت مباشرة إلى المتجر القريب الذي لا يبعد سوى حوالى أربعمائة متر عن المنزل وابتاعت منه ما يلزم المنزل وتبقي معها بعد ذلك مبلغ جيد، وللحقيقة فإنه حين ترك لها المبلغ داخل المظروف صباحاً لم يكن ينوي قط أو يقصد أن يكون المبلغ كافياً فقط لشراء لوازم المنزل، بل كان يقصد أن يعطيها منحة مالية إضافية بشكل لا يجرح إحساسها وهي بالمقابل لم تفهم الأمر على هذا النحو، وبالطبع وكالعادة رسخ في ذهنها أنها سوف تسوي حساباتها قبل أن يرحل وتعطيه ما تبقي.
غاية الأمر رجعت السيدة منى وجهزت طعام الغداء وكانت تعتقد أنه سيحضر على الأرجح خلال الثانية والنصف، ولم يحضر فتأكدت من تناوله طعام الغداء بالخارج حيث إنه لم يتصل هاتفيا بها مما ضايقها قليلاً، فوضعت لنفسها طعام الغداء وتناولته وقررت الانصراف إلى منزلها لتأخذ قسطًا من الراحة، وتذكرت أن تخرج ملابسه الداخلية التي كانت قد غسلتها صباحًا ووضعتها مرتبة على فراشه ليراها عند عودته، ثم انصرفت إلى منزلها في الرابعة فتوضأت ثم أدت صلاة العصر، ودق الهاتف في أثناء الصلاة ثم توقف عن الرنين حين لم يجد الطرف الآخر جواباً، ودخلت إلى مخدعها واستلقت على فراشها وهي تنظر نحو الصورة الموجودة بالإطار وانزلقت على أثرها دمعتان ثم استدارت وراحت في سبات قلق وهي تفكر في فلذة كبدها التي تؤكد الأيام والأحداث أنه مع كل يوم يمر تصعب الظروف التي قد تمكنها من رؤيته، وحمدت الله الذي رزقها أولئك الناس الذين خففوا عنها آلامها إلى حد بعيد.
وبعد أن وصل شاكر مع رئيسه ويلسون إلى مقر الشركة تذكر أن عليه الاتصال هاتفيا بوالدته وبإمكان رؤيتها ولم يرد عليه أحد حيث كانت تؤدي الصلاة، ولما لم يجد جواباً جلس يراجع أوراقه ويكمل ملاحظات قد بدأها في تقريره الذي اكتمل، لكنه من داخله كان يسترجع الحوار الذي دار في أثناء الغداء بين الخليجي صاحب العمل الأدبي المزمع نشره عن طريق شركتهم وبين ذلك الأمريكي، وكان يشعر مع تذكره ذلك الأمر بنوع من الثقة والقوة وكان في نفس الوقت تواقا ليسمع المزيد، حيث توقع أن يحتدم الحوار مساء الغد وتظهر حقائق جديدة كان يتمناها ويجهلها وأيضاً كان يخشاها.
وبالنسبة لوالدته فقد قرر أن يؤجل الاتصال بها بعض الوقت فهي ربما كانت خارج المنزل الذي لم يزره مرة واحدة منذ انتقلت إليه أمه ولكنه يعرف العنوان حيث أعطته أمه عنوان منزلها الجديد في أثناء مكالمة هاتفية سابقة، وبالفعل لم يكن يشغل فكره في تلك اللحظات سوى هذين الشيئين وهما ما قاله ذلك العربي حول العرب وحضارتهم الذي يعبر عنها الإسلام أصدق تعبير باعتباره رسالة حضارة للعالم والبشرية كلها وليس لقوم دون آخرين، وأمه التي أحس داخله باهتمام نحوها ربما لوجوده في مدينة لندن بقربها.
وأخيراً طرد من رأسه تلك الأفكار أو جمدها حين وجد نفسه يرفع سماعة الهاتف ليحادث زوجته ويخبرها بتأخره في لندن يومًا إضافيا بسبب مشاغل العمل الجديد التي طرأت بشكل مفاجئ. وسألته عن مكان إقامته في لندن فأخبرها أن الشركة قد حجزت له غرفة في أحد الفنادق الجيدة وسوف يحادثها هاتفيا من هناك.
انتهى الفنان من رسم الفتاة الجالسة أمامه فنهضت من جلستها وظهرت سعادتها حين رأت صورتها، وكان صديقها ضمن الواقفين فأخذا يتضاحكان. والتفت الفنان خلفه فرأى صديقه وفوجئ به واقفا ينظر إليه وهو يبتسم فصافحه قائلا: - أنت هنا منذ وقت طويل؟ - نعم وأنت ترسم الفتاة، عشر دقائق ليست بالوقت الطويل. - إنها فرصة لأستريح وأشرب معك فيها قدحاً من القهوة. - لا أريد أن أزعجك، سأقف معك هنا إلى أن يبدأ عمل جديد فأنصرف لأشرب القهوة وحدي حتى لا أتسبب في تعطيل عملك.
كان الخليجي يتحدث بينما الفنان يجمع أغراضه ويضعها بجوار بعضها قائلا لزميله: دقائق وسأعود، وجذبه من يده منطلقا به إلى مقهى قريب شربا فيه القهوة. وقال الخليجي لصديقه: لقد حضرت فقط لأراك، وسوف أنطلق الآن إلى المنزل لأستريح وسنلتقي ليلا هناك في كوينزواي ولا تنس عشاء الغد. فقال الفنان لصديقه: عشاء، أي عشاء تقصد؟ فرد الخليجي قائلا: غدًا عشاء عربي في منزلي. - من سيحضر هذا العشاء؟ - أصدقاء قليلون، المهم أن تحضر في التاسعة مساء.
فحك الفنان رأسه، وفهم الخليجي بأنه في هذا الوقت ربما يكون العمل على أشده فقال له: صديقي، أتمنى أن تكون معنا على العشاء، لكني أعرف أن عملك يتطلب منك الجلوس يوميا هنا لكسب عيشك فالحياة هنا لا ترحم. فنظر الفنان إلى صديقه الخليجي قائلا: بالفعل الحياة هنا تتطلب العمل ليل نهار إن أمكن ذلك، ولكنك دعوتني وأنا قبلت دعوتك، وغداً من التاسعة ليلاً إجازة خاصة.

فأنا أعمل عادة من الثالثة ظهرا وحتى الثانية عشرة مساء حسب الظروف، وأعتقد أنني بالفعل في حاجة لثلاث ساعات أغير فيها هذا الروتين اليومي الرهيب الذي يصيبني أحياناً كثيرة بالملل.
فقال الخليجي: ألم تكن تعتقد أن الحياة هنا مريحة يا صديقي قبل أن تحضر من بلادك؟ فأجاب الفنان: كانت أحلام شباب سرعان ما تبددت على صخرة الواقع. ثم استطرد قائلا: اسمع، لا أحد في هذا الكون يستطيع اختيار مصيره، نحن نعمل قدر طاقتنا بل وبما يفوق طاقتنا البشرية، من أجل ماذا؟ وأجاب على نفسه قائلا وهو يوجه الحديث لصديقه: من أجل المال أم من أجل الحياة كلها مالاً وأبناءً وطموحاً، صدقني أيها الأخ العزيز نحن ننزف أعمارنا وحياتنا لحظة بلحظة ولا نشبع من المال الذي لا نستطيع حتي أن نجمع منه ما يكفينا ثم يتركنا الأولاد مستقلين بحياتهم لنعاني نحن في أواخر أيامنا من الوحدة والمرض حتي يتلقفنا الموت في لحظة، أليست تلك هي الحياة؟ فقال له الخليجي: نعم، تلك هي الحياة، ولكنها تكون كما قلت إذا لم تستند فيها بالدرجة الأولى على الإيمان بالقوة العظيمة التي خلقت تلك الحياة بكل كائناتها ورعتها بمشيئتها، ألا زلت مسلما يا صديقي؟ فرد الفنان بحزم والانكسار يظهر في عينيه: نعم، ولكن.... ثم تلعثم وهو يردد كلمات: الحياة هنا - الصعوبة - الطوفان - الزوجة والأبناء. فبادره الخليجي قائلا: أتركك في رعاية الله على أمل اللقاء ليلا بعد أن تنتهي من عملك... فحياه الفنان وقفل عائدا إلى مكانه المعهود.
وانصرف الخليجي متوجها نحو محطة القطار وكان رذاذ خفيف من المطر يتساقط في تلك اللحظات، فهبط الدرج واشتري بطاقة جديدة للعودة ووقف على رصيف المحطة ينتظر القطار وهو يفكر في حياة صديقه الفنان الذي قضى من عمره ما يقارب العشرين عاماً في تلك المدينة، تزوج خلالها وأنجب أولاده الأربعة، ثلاثة أولاد وفتاة لا يستطيع أي منهم جميعاً أن يتحدث كلمة واحدة بالعربية، يقضي حياة مبرمجة بشكل غريب؛ حيث يبدأ يومه من الثانية عشرة حين يستيقظ من نومه ثم يذهب إلى عمله في مكانه المعهود في الثالثة عصراً ويستمر فيه حتى الثانية عشرة ليلاً وهو جالس يرسم أو واقف يحادث زبائنه ويدعوهم للحصول على صورة من رسم يده على سبيل التذكار، ويخصص في نفس الوقت أحد أيام الأسبوع كإجازة يصحب فيها زوجته وأبناءه ليتناولوا عشاءهم خارج المنزل معاً.
كما يتذكر صاحبنا ذلك الحوار الذي دار بينه وبين صديقه حول الحياة بنمطها الغربي، ولم ينس جملة قالها صديقه الفنان بعفوية بالغة: إن الحياة هنا في المجتمع الغربي تختلف جذريا عن الحياة في مجتمعاتنا العربية.
هنا لا مجال للمشاعر ولا مكان للعواطف، عليك أن تركض بأسرع ما يمكنك للحصول على المال، وعليك أن تفعل ما بوسعك للاقتصاد في إنفاقك يوما بيوم، إذا نمت يوماً أو تكاسلت فلن تجد ما تأكله ولن يشعر بك جار أو قريب.
استقل الرجل الخليجي القطار عائدا إلى منزله حيث شعر بأنه في حاجة ماسة إلى الراحة قليلاً، وكانت الأفكار تتماوج داخل عقله حول ذلك الصراع الإنساني وآفاقه المخيفة في ظل فكر إنساني مبني على قوانين حركة المادة، وفي ظل امتلاك الإنسان لوسائل وإمكانيات هائلة القدرة على التدمير.
وتظل الأفكار تدور وتدور، ويحتدم الحوار داخل نفسه، ويظل السؤال لماذا يحمل الغرب هذا العداء للإسلام؟ هل تخشى الحضارة الغربية الإسلام إلى حد العداء؟ هل تظل فرضية التدمير الحضاري قائمة؟ وممن؟ من الإسلام؟! وتأتي الإجابات من ذات النفس لتقول بأن الإسلام في جوهره وشريعته ومعناه حضارة عظيمة، ومنه استقي الغرب أسس حضارته ومنه انطلق.. إذن ما هو كنه هذا العداء؟ وما هو سبب ذلك الخوف؟ هل درس الغرب الإسلام كدين سماوي وفهموا قيمه ومبادئه وجوهره؟ هل درس الغرب القيم الإسلامية العليا والمبادئ السامية والسلوكيات الراقية التي يدعو إليها دين الإسلام؟ أم أنها حملة تحمل في ثنايا خطوطها عنصرية مقيتة وكريهة تؤججها جهات مشبوهة تعتبر أن معطيات حضارتهم المادية الخاوية من الروح مسلمات لا يجوز لأصحاب ثقافة أخرى أن يمسوها أو ينتقدوها.
ومع الأفكار التي راحت تصطرع داخل عقل الرجل وروحه كان الغضب والرثاء معا يمتزجان داخله وهو يستعرض روحه ونفسه وعقله الذي يمثل تلك العقيدة الإسلامية وثقافتها وتراثها العظيم الذي يحمل أسمي معاني القيم والمبادئ الإنسانية والمثل العليا في التسامح والعدل والمساواة. ويفتش داخل نفسه مرة ومرات محاولاً العثور على ذرة من الكراهية تأصلت في نفسه أو حملها تراثه عبر موجات التاريخ أو احتوتها ثقافته تجاه الغرب وحضارته أو أي من الأمم الأخرى، بدءا من الإغريق وحضارة اليونان القديمة أو الحضارات الأخرى كالهندية والصينية، فلا يجد سوى احترام وتقدير ونسائم حب حقيقية لتلك الشعوب وهذه الحضارات التي يعتبرها مفاصل في مسيرة التاريخ الإنساني سادت بحكمة الله وقدرته لأزمنة وفترات ثم بادت لضرورات فرضية التطور الإنساني ضمن حلقات السلسلة الزمنية والتاريخية وصولاً إلى تلك اللحظات التي تتنسم فيها الهواء. وصل القطار إلى محطة بايرل سكورت فنزل فيها الرجل الخليجي وتوجه مباشرة إلى منزله، ولم تكن السيدة منى (أم شاكر) موجودة هناك فشرع على الفور في تبديل ملابسه بملابس النوم ورفع غياراته الداخلية النظيفة التي وضعتها أم شاكر فوق فراشه، واندس تحت الغطاء وراح في نوم عميق.
أيقظ الرنين المزعج للهاتف السيدة منى من نومها فرفعت سماعة الهاتف وما أن جاءها صوت الطرف الآخر حتي أفاقت وكأنها استيقظت منذ ساعة أو أكثر حين سمعت صوت ولدها شاكر وهو يقول: »هالو ماما«، ودوت الكلمة في أذنها فتجمدت وكأنها كانت تتمنى في تلك اللحظة أن تظل هذه الكلمة تتردد مدى حياتها في أذنها وبصوت مرتعش يحمل الأسى والفرح وصدى المفاجأة معًا، فأجابت: »شاكر ولدي، شاكر حبيبي أنا أمك«، وتعلثمت كلماتها، وتداخل صوتها مع صوته وهو يحاول تهدئتها بعد أن سمع نشيجها الباكي وكانت تحاول هي أن تختصر بمشاعرها التي ترجمت إلى كلمات تقولها بشفتيها الأيام الطويلة التي حرمت خلالها من صوته.
وبعد أن استطاعت أن تتماسك وتهدأ سألته: من أين تتحدث الآن؟ فأجابها: من لندن. أنا هنا وقد حضرت اليوم لمهمة خاصة تتعلق بالعمل وأردت الاطمئنان عليك. فقالت: أين أنت الآن؟ ثم استطردت: تعال الآن أريد أن أراك. فأجابها: لا تقلقي، سأحاول في الغد أن ألقاك، فقط

أردت الاطمئنان عليك، لقد اتصلت تقريبا في حدود الرابعة ولم أجدك. فقالت والألم يعتصرها: هل أنت مشغول الآن؟ إذا كنت مشغولا فخبرني وسآتيك أنا فوراً إلى مكانك، فقط أعطني عنوانك الآن.
هل معك الأولاد؟ فرد قائلا: لا، لا تقلقي ولا تشغلي نفسك بي، أنا الآن سوف أستريح قليلاً وبعدها سأحاول رؤيتك وسوف أخبرك هاتفيا قبل حضوري. قالت له: ولدي شاكر تعال لتستريح هنا وامض ليلتك معي في المنزل الجديد. آه، صحيح أنت لم تر المنزل الجديد لابد أن تحضر، أنا أمك يا شاكر ولي الحق في رؤيتك أم أنك لا تريد رؤيتي؟ صمت شاكر قليلاً ثم قال: أوه. لا تقولي ذلك ولا تعذبيني بهذا الكلام يا أمي، واهتز صوته مرتعشًا وفرت دمعة من عينه وقال لها: سآتيك فوراً يا أمي، من فضلك أعطيني العنوان الجديد.
فأعطته عنوانها وقلبها يتقافز بين ضلوعها من الفرح والتأثر وقالت له: لن أبرح المنزل حتى تحضر. سأنتظرك يا شاكر، هه ، هل سجلت العنوان؟ دعني أراجع معك مرة أخرى، وبعد أن قرأه عليها قالت: صحيح، العنوان صحيح، حالاً يا شاكر سأعد لك وجبة ساخنة، إني أنتظرك. فقال لها: إلى الملتقى يا أماه.
أغلقت السيدة منى سماعة الهاتف وظلت مكانها على الفراش تنظر بعينيها في ذهول إلى لا مكان، ثم نهضت واغتسلت وأخذت تعد المنزل لاستقبال ولدها وهي تعد الدقائق واللحظات. جلس شاكر على مقعد بغرفته وهو يحملق في فضاء الغرفة يفكر في أمه وكأنه اكتشف له أما فجأة! لقد شعر بشيء لا يدري كنهه يتحرك داخله يهزه هزا، ولأول مرة يكتشف عاطفة جارفة تنمو داخله وحنينا غريبا لم يستشعره قبل ذلك يهاجمه بعنف ويغزو جوانحه ويملأ صدره.
قام من على مقعده متجها صوب النافذة المطلة على حديقة خلفية تفصل بين الفندق وبين البنايات ذات الأسقف القرميدية المائلة بمداخنها، وهو يفكر في السنوات الطويلة الماضية التي لم يجرب فيها ذلك الشعور... وتساءل بينه وبين نفسه.. لماذا؟ ولم يجب؛ لأنه بالفعل لم تكن هناك داخل نفسه إجابة على هذا التساؤل.. لقد قضى طفولة مدللة من تلك الأم وأبيه الراحل اللذين حاولا جهدهما ربطه بثقافته وتاريخه عبر تعليمه لغته الأم وحواراتهما التي كانت تبدو له غير ذات أهمية حول الدين والثقافة الأصلية والمناقشات التي كانت تجرى حول أحداث الشارع والعلاقات التي تربط بين الناس هنا ببرودها ودوافعها المصلحية والحروب التي كانت تجري هنا على أرض وطنهم الأم. لم يكن كل ذلك يشكل له أي تأثير أو اهتمام في خضم حياته التي عاشها في مدرسته وجامعته والوسط الذي كان يتحدث فيه خارج المنزل المحيط الذي بدأ مع صباه وأخذ يتطور إلى أن وصل كأقرانه في ذلك المجتمع إلى التصرف الانفرادي الحر، كالمبيت خارج المنزل وبناء العلاقات ذات الخطوط التي تتفق مع تقاليد وعادات تلك المجتمعات المتفتحة دون انتقاء ما يصلح وما لا يصلح.
لقد انخرط شاكر وامتزجت حياته امتزاجا كليا مع الحياة هناك. يسرح بخياله.. يسترجع شريط حياته.. يتأمل فيكتشف أن ما حدث أمر طبيعي تماماً، ويقول في نفسه: نعم، هكذا كانت الحياة ومازالت كائنة.
لقد ولدت ونشأت وتربيت هنا وسط هذا الضجيج الهائل لماكينة الحضارة الغربية، ويتساءل وكأن زلزالا ضرب بنيانه النفسي والروحي: هل أحمل داخل نفسي وروحي بذور ثقافتي الأصلية التي أسمع عنها؟ وهل مازلت شرقي العقل والنسيج النفسي؟ وتجيب نفسه في حياء: بالفعل أنا لم أستطع. ولن أكون غربيا نقيا أبداً، لقد بذلت ما بوسعي وكنت أفوقهم في سلوكياتي وطباعي الغربية المتماشية مع أنماط الحياة هنا، وكان ذلك يتم بشكل طبيعي وتلقائي دونما تكلف.. لكن كنت أشعر دائما وأنا بينهم بغربة داخلية تعذبني دائما وكلما استشعرت عذابها زدت ابتعادا عن ذاتي العربية محاولاً التخلص منها بشكل نهائي قاطع. والنتيجة: هذا أنا الآن، وانفجر بشكل مفاجئ في بكاء عنيف وهو راكع على أرض الغرفة واضعاً رأسه بين يديه متكئا بهما على سريره.
هدأ قليلاً ونهض بتثاقل إلى الحمام فاغتسل وشعر بأنه يود لو يطير كلمح البصر ليري أمه ويرمي نفسه بين أحضانها. ما أن خرج من الحمام إلا وكان الشعور هائلا داخل نفسه بالشوق لرؤيتها، وبصورة بدت داخله وكأنه يريد أن يلحق بها قبل أن ترحل.. فخلال لحظات انهارت وتحطمت قلاع وحصون كأنها كانت من ورق، وأشياء كثيرة داخل نفسه، وبدأت أحاسيس أخرى تغزوه من داخله لم يجرب طعمها قبل هذه اللحظة. وفي خضم هذه الانفعالات كان الحوار الذي جري خلال الغداء بين الخليجي والأمريكي يدور في داخله مشكلاً علامة استفهام كبيرة.
لقد أحس بالعجز وشعر بهزة هائلة وساحقة لم يستطع مقاومتها.. ارتدي ملابسه بسرعة ولم ينتظر المصعد فهبط مترجلاً الدرج من الطابق الثاني بالفندق الذي يقيم فيه، وفي أول سيارة تاكسي ألقي بنفسه داخلها معطياً السائق العنوان. توقفت سيارة التاكسي أمام البناية في شارع كروموبل ونظر إلى لوحة الأزرار المثبتة على جانب مدخل البناية وضغط على زر الشقة التي تقيم بها والدته، وما هي إلا لحظة ربما لم يكن لحظتها قد رفع إصبعه من على الجرس إلا وجاءه صوت أمه بعد أن فتحت له: تعال يا حبيبي بسرعة.
وقفت السيدة منى أمام باب شقتها تنتظر ولدها وما هي إلا لحظات بدت ثقيلة الوطأة حتي ظهر أمامها في الممر المؤدي إلى الشقة وتقدمت نحوه مادة ذراعيها فإذا هو يركض ليحتويها في صدره ومحوطا بها بين يديه وهي تقبله في كل مكان على وجهه وقد اختلطت دموعهما معا، ثم أخذها من يدها ودخلا الشقة وإذا بها تسحب يده لتقبلها فانهار وعلا نشيجه وأخفي وجهه بكفيه باكيا وإذا بها تجفف دموعها بسرعة وتضم رأسه في صدرها وهو جالس على الأريكة بالردهة وهو يردد باكيا: أماه، سامحيني لقد أذنبت في حقك إذ تركتك طوال هذه المدة.. أنا لا أريد أن أتركك وحدك بعد الآن، ثم رفع وجهه وأخذ ينظر إلى وجهها وهي تبتسم في حزن وانكسار. فاستطرد قائلا: أريد أن أعرف كل شيء عن أحوالك هنا.
ثم أدار وجهه ملتفتا حوله وهو يقول: هذا البيت أحسن وأوسع من سابقه.. قالت له باسمة: سوف أحكي لك عن حياتي منذ ابتعدت عني. لقد كان الله دائما معي وفي عوني، ثم صمتت برهة وهي تنظر في وجهه وقالت: شاكر، إن الله لا ينس عباده المؤمنين ويشملهم دائما برحمته،

أرجوك يا بني وأنصحك أن تتمسك بدينك وأن تغرس في أبنائك أحفادي الأعزاء قيم دينهم وتربيهم عليها.. ثم أشاحت بوجهها في حزن قائلة: أعلم أن زوجتك ربما سترفض ولكن بالحسني يا شاكر، كن طيباً معها، وابدأ بنفسك يا ولدي، إن الإيمان بعظمة الله وقدرته واستلهام العون منه كان القوة الحقيقية التي رعتني وحفظتني من الجنون والانهيار. وكانت دعواتي وضراعتي إلى الواحد القهار الذي لا شريك له في أثناء سجودي وركوعي هي التي أعادتك إلى الآن.. إنني أعرف جوهرك ومعدنك يا بني وكنت على يقين أنك ستعود إلى نفسك وإلى حقيقتك مهما حجبت الظروف الحقيقة عن بصرك وبصيرتك.. شاكر، أنا لا أصدق أنك معي الآن، ستنام هنا وسوف أغطيك قبل نومك وأقص عليك الأقاصيص التي كنت تحبها وقت طفولتك، هل تذكر يا شاكر؟ ضحكت من قلبها ورفعت رأسها إلى أعلى قائلة: اللهم لك الحمد والشكر..
نهضت فجأة من على مقعدها وكأنها تذكرت شيئا مهما وهي تقول: - أوه شاكر دعني أجهز لك العشاء بيدي.. منذ وقت طويل لم تتناول طعامًا من يدي.. تركته مسرعة نحو المطبخ، وفي أثناء اجتيازها للردهة دق جرس الهاتف فتوقفت وعادت لترفع السماعة وإذا بالرجل الخليجي على الطرف الآخر. فها هو قد نهض من نومه نشيطًا وتذكر أن عليه أن يحادث السيدة منى بخصوص عشاء الغد، فقال لها: - مساء الخير يا أم شاكر. - مساء النور يا بني، متى عدت من الخارج؟ - ربما في السادسة وقد حصلت على قسط من الراحة، كيف الحال؟ - الحمد لله كل شيء جيد، هل تناولت طعام غدائك؟ لقد تأخرت في الحضور فاضطرت إلى الانصراف. - لا عليك لقد تغديت بالخارج مع بعض الأصدقاء. هل تستطيعين الحضور هنا لدقائق؟ - هل بك شيء يا بني؟ هل تريد شيئا؟ - لا تقلقي، فالأمر فقط يتعلق بحفل عشاء عربي مساء الغد في التاسعة، وقد دعوت بعض الأصدقاء في المنزل وأريدك لأرتب معك الأمر. - يمكنني أن أحضر في أي وقت، لكن معذرة يا بني لقد حضر ولدي فجأة وهو معي الآن، ولم أشاهده منذ وقت طويل كما تعرف.. على أي حال لا تقلق بالنسبة لعشاء الغد، وسوف يكون كما تريد وتتمني. - أوه هل حضر ولدك؟ مبروك، إذن لا عليك، تستطيعين أن تظلي معه، فقط أردت أن أخبرك بالأمر وسوف أخرج بعد قليل لأذهب إلى الأصدقاء بكوينزواي ويسعدني أن أري ولدك، سلمي عليه، وبالمناسبة سوف أترك لك مظروفًا على المنضدة الصغيرة بجوار الهاتف لتغطية مصاريف الغد، فقط عليك بالأطباق العربية الشهيرة وسوف أرتب الأمر مع أحد المطاعم العربية هنا. - إن لدي بعض النقود المتبقية وأعتقد أنها تغطي المصاريف، لا تشغل نفسك بهذا الأمر، كل شيء سيكون على ما يرام. - سوف يكون المظروف على المنضدة كما ذكرت والآن أستودعك الله. - في حفظ الله يا بني وسلامته. أغلقت الهاتف ونظرت تجاه ولدها فوجدته ينظر لها بدهشة بعد أن سمع الحوار وكأنه يريد الاستفسار منها فقالت له باسمة مطمئنة: لا تستغرب يا شاكر لقد رزقني الله بأسرة عربية هنا أصبحت لي الأهل والموطن، فأنسوا وحدتي ونسيت معهم آلامي في وحدتي وقرت بهم عيني.
رفعت رأسها إلى أعلى وهي تحمد الله وتدعو لهم. فقال لها شاكر: لقد أثرت فضولي يا أماه من هؤلاء الناس! فقالت: دعني أولاً أضع لك الطعام وبعض الفاكهة وسوف أحكي لك القصة كاملة وأنت تتناول طعامك.. لم تنتظر جوابه فدلفت إلى المطبخ بسرعة وبعد دقائق قليلة وضعت له طعامه على المائدة وجلس هو في مقابلها ليأكل إرضاء لها وهو في الحقيقة ليس له رغبة في أي طعام، لقد كان في حالة نفسية لا تمنحه أي رغبة في طعام أو شراب.
وهو يستمع إليها وهي تحكي له قصتها منذ أن التقت بالخليجي عندما كانت تبحث عن مسكن جديد وكيف تعرفت على أسرته وأصبحت واحدة منهم. كان شاكر يستمع لها مشدوها وينظر لها بفضول وهي تتحدث عن هؤلاء الناس وكأنهم هبطوا إلى الأرض من كوكب آخر، خاصة حين بدأت تحكي عن التفاصيل الصغيرة لحياتها مع هؤلاء الناس، وكيف تشعر بالوحشة والحزن حين يسافرون عائدين إلى بلادهم بعد انتهاء إجازة الصيف التي يقضونها في لندن وكيف تعيش أجمل أيامها وأفضل أوقاتها معهم حين يأتون إلى لندن.
يتهلل وجهها بالراحة وهي تحكي له عن مشاعرها خلال الفترة التي تعرفت فيها على هؤلاء الناس، وتلمع عيناها وهي تقول: أشعر يا شاكر معهم كأني عدت من جديد إلى مكان ما أحبه ولي فيه ذكريات مزدانة بالبهجة والطمأنينة، كأنني يا ولدي كنت ضائعة في دروب الحياة وأخيرًا عثرت على ضالتي وتبينت دربي، بل أكثر من ذلك يا ولدي لقد كان الأمر يشكل في معناه كابوسًا مخيفًا عشته سنوات طويلة منذ فقدت والدي هناك اللذين كانا بمثابة نبعين للحنان لا ينضب معينهما، ثم فقدت والدك وأنت صبي، ساعتها بدأت أنياب الخوف من المجهول تبرز وتظهر بشكلها المخيف، لكنك كنت صمام الأمان ومصدر الطمأنينة لي فقد كنت أنت بمثابة الشجرة التي تظلل حياتي بالأمان والتي كنت أرعاها لأنتظر ثمرها.
كان الخوف يهاجمنى أحيانًا كلما تقدم بي العمر وأنا هنا وحيدة أرعاك وأربيك ولم يكن معي سوى الله الذي شملني برعايته حين اشتد على هجير الحياة وزمهريرها هنا.. في أول الأمر حين تزوجت والدك كان هو لي بمثابة الأب والأم والأهل وحين أتيت أنت إلى الحياة امتلأت قلوبنا بالبهجة. .. لكنها الأيام يا ولدي والزمن الذي لا يرحم حين بدأ كل شيء يرحل أو يتأهب للرحيل، حتي أنت الأمل الباقي والوحيد نسيتني في خضم اندفاعك للحياة وأنا لا ألومك يا ولدي فقد نشأت هنا في مجتمع مغاير في قيمه وقوانين حركته وسلوكياته عن المجتمع الذي حملت أنا قيمه وقوانينه وسلوكياته، صدقني يا بني برغم ما حدث فإنني لم أفقد الأمل أبدا في عودتك.. لم أكن غاضبة منك بل كنت حزينة من أجلك وكنت أدعو لك في صلاتي.. كنت أحاول أن أتذكر ولو لمرة واحدة أني قد قصرت في تلقينك لغتنا ودينا وتاريخنا فلا أتذكر.. جرفك الطوفان وذهبت معه لكني كنت على ثقة من عودتك ليس فقط لي، بل لذاتك ولنفسك.. وكثيراً ما كنت أشعر وأحس بالصراع يدور داخلك بين ذاتك بقيمها ونسيجها الروحي والفكري والثقافي وبين مجتمعك الذي تعيشه بقيمه ونسيجه الروحي والفكري والثقافي.. حاول شاكر أن يقاطع أمه فرفعت يدها ليدعها تكمل فسكت وقالت: لم أكن أملك في تلك المرحلة شيئاً لأفعله وكان ما كان، والآن يا بني لا تدع الحزن يسيطر عليك؛ إني راضية ولا أريد منك سوى رؤيتك والاطمئنان عليك، أنا بخير يا بني مع هؤلاء الناس وقد عوضني الله بهم ما فقدت.

لم يأكل شاكر شيئا من الطعام طوال حديث أمه، وحين انتهت من حديثها نهض من على مائدة الطعام وذهب باتجاه مقعدها الذي تجلس عليه واحتوي رأسها في صدره مقبلاً إياه وهو يقول: سامحيني يا أمي وأرجوك أن تقبلي اعتذاري؛ إنني أشعر الآن بطوفان من التعاسة داخلي وعزائي الوحيد أنك لست غاضبة مني، وما يعزيني هو وجود هؤلاء الناس في حياتك.. فأنا يا أماه مدين لهم.. فهل أستطيع أن أري هذا الرجل الذي حادثك بالهاتف؟ ما اسمه؟ قالت له اسمه الخليجي. وقال في نفسه ربما يكون هو الرجل الذي التقيت به اليوم مع ويلسون..
صمته وشروده أثارا انتباهها وفضولها، وقد لاحظ هو ذلك فقال لها: سمعتك تحادثينه حول عشاء في الغد يا أماه.
فرددت قائلة: لقد دعا بعض أصدقائه على العشاء وأخبرني حتي أعد بعض الأطباق العربية الخاصة والحلويات وسوف يحضر الأطباق الرئيسية الخليجية من أحد المطاعم العربية الكبري هنا في لندن.. إنهم يمثلون الكرم العربي الحقيقي يا ولدي. واستطردت: سأعرفك به وستتناول العشاء معه في منزله ضمن المدعوين .. ستجلس معي غدا يا شاكر أليس كذلك؟ ضحك شاكر وهو يشعر بدهشة كبيرة واستغراب من تلك الأقدار التي تلعب بحياة البشر وأجاب أمه قائلا: سوف أتعشي معك غدا فلقد دعوتني، وأنا قبلت دعوتك ولقد دعاني ذلك الرجل أيضًا اليوم وقبلت دعوته. دهشت أمه وسألته مستفسرة. ماذا تعني بأن الرجل دعاك أيضا لتناول العشاء بمنزله؟
ربما تصيبك الدهشة لو علمت أنني تناولت معه طعام الغداء اليوم.. لقد تعرفت عليه اليوم بالمصادفة. ابتسمت الأم وهي تقول له: كيف؟
فحكي لها عن أحداث يومه ومهمته التي جاء من أجلها من ليفربول، ولقائه بالرجل من خلال مسئوليته في العمل وذهابه بصحبتهم حيث تناولوا طعام الغداء معا في مطعم سان لورنزو، ولم ينس أن يحكي لها عن الحوار الذي دار بينه -أي الخليجي- وبين الجنرال الأمريكي الذي أثار إعجابه والذي ينبئ عن شخصية ذات ثقافة رفيعة وإلمام كبير.

بسبب فرحتها ودهشتها معا لم تصدق الأم. نهضت من مكانها باسمة وأسرعت لتدق رقم هاتف الخليجي لكن دون جدوى فقد خرج الرجل من المنزل متوجها إلى كوينزواي حيث يجتمع الأصدقاء ليلاً. وضعت السيدة منى سماعة الهاتف مكانها وتوجهت لولدها بالحديث قائلة: ولدي، على كل حال أنا أشعر الآن بسعادة غامرة لم استشعر طعمها منذ زمن بعيد.. ثم استطردت: حبيبي أنت لم تتناول طعامك، إنني أشعر بالجوع وسأكل معك، اجلس يا صغيري وتناول عشاءك معي. قال شاكر: نعم يا أماه، الآن فقط أستطيع أن أبلع الطعام وأشعر بطعمه معك. وغشيته سحابة حزن خفيف وهو يقول: ليت ولدي معي الآن ليراك ويعرفك.. لقد كبر يا أماه وأعدك أن أحضره خصيصًا مرة قادمة ليراك.
فنظرت إليه قائلة: لا تذكرني بأنك ستذهب عني استمتع بوجودك معي اليوم وغدا... ثم تساءلت: هل ستغادر بعد غد يا شاكر؟ نظر إليها وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى قائلا: نعم يا أماه، سأذهب بعد غد لأعود إليك وأعيش بقربك للأبد، فرفعت يدها ودعت له وأشارت له ليتناول طعامه. توقفت سيارة التاكسي أمام المقهى العربي الكائن بالقرب من وايت ليز بشارع كوينزواي بعد أن عرج في طريقه على مطعم عربي شهير في لندن وكان المطر يتساقط بشكل خفيف وأخرج الخليجي حافظة نقوده وأعطى السائق أجرته وهو داخل السيارة ثم ترجل منها وعبر الشارع مسرعًا إلى المقهى حيث وجد بعض الأصدقاء من الرواد الذين يتجمعون كل ليلة هناك، حيث يتسامرون ويدخنون الشيشة ويشربون الشاي بالنعناع الأخضر، وغالباً ما كانت الأحاديث تدور حول أوطانهم الأصلية والأحداث التي تجري في مناطق متعددة من العالم بدءاً من عالمهم العربي والإسلامي وانتهاء بأحداث الحرب البشعة التي لا يراد لها أن تتوقف في البوسنة والهرسك والصلف الصربي العنصري مقابل الدول الغربية التي تضعف بإرادتها أمام هذا الصلف، ونزيف الدماء والجرائم البشعة التي تحصد أرواح المسلمين هناك لا يراد له التوقف، وإسرائيل التي تعربد في بلاد العرب وتنشر القتل والدمار وتشرد العرب المسلمين من بلادهم بلا رادع، وسلاحهم النووي المخيف الذي أصبح كالسيف المسلط على رقاب المسلمين، والتواطؤ الغربي المكشوف والمفضوح بقيادة القوة العظمي في العالم التي تنادي ليل نهار بالعدل والمساواة والحرية، بينما الأطفال والشيوخ والنساء يسقطون صرعي الطغيان، والناس يشردون من منازلهم دونما رادع.
أمور كلها كانت ومازالت حديث الناس ومثار غضبهم وفزعهم في كل مكان في العالم وخاصة في العالم الإسلامي والعربي.. كانت تلك الأحداث وغيرها عادة ما تشكل موضوعات رئيسية للحديث بين الأصدقاء ويتفرع منه تفسيرات متعددة وآراء مختلفة من كل منهم حول الدوافع التي تجعل الغرب يحمل عداء غريبًا وأبديا وقديما وخصومة تقليدية للعرب خاصة وللدين الإسلامي بصفة عامة.
انبري أحدهم قائلا: إنني بالفعل مندهش وفي حيرة من الغرب، وسبب تلك الحيرة أن الفكر الغربي والحضارة الغربية تعتبر تارة تجسيدًا للعقل والتقدم والنزعة الإنسانية وتارة أخرى تمثل قوة مسيطرة تعرقل نهضة الآخرين وتتحول إلى عنف وحشي وتدخل غاشم.
فعقب الخليجي على كلامي مؤمنا بقوله: نعم إن ما قلته صحيح، الغرب بالفعل يشكل تناقضا غريباً حيث يكون أحياناً غرب الإخاء والمساواة وحقوق الإنسان وفي أحيان أخرى غرب العدوان واللاتكافؤ والاحتقار والاستعمار.
وتلك الثنائية العجيبة يدركها ويعاني منها مثقفو الغرب أيضاً وليس فقط الشعوب والثقافات التي حاول الغرب أن يدمجها في دورته التاريخية والحضارية، ولذلك فإن هناك كتابات ومواقف فكرية لكتاب ومفكرين غربيين تدعو إلى نقده وتفكيك مقولاته وخلخلة نزعته المتمركزة حول العقل أو حول الغرب كمفهوم وحضارة وفكر. فتدخل أحد الأصدقاء قائلا: برغم أنني لا أشغل نفسي بتلك الأمور فإنه يمكن القول وبثقة إن تفريط العرب والمسلمين وتشتت كلمتهم وخلافاتهم هي الأساس والمرتكز الذي بني عليه الغرب سياساته في التعامل مع العرب والمسلمين.
إنه التاريخ الذي تيسر لنا أن نقرأ صفحاته والذي عرفنا من خلاله أن الضعفاء ليس لهم الحق سوى أن يذعنوا لما يفرضه عليهم الأقوياء، ولهم أيضاً الحق فقط في الاحتجاج وليس الرفض... ومعذرة أيها الأصدقاء هذا هو ما أفهمه من خلال منطق الحياة العادية والسلوكيات حتي التي تحكم تعامل البشر في مجتمع واحد برغم القوانين والأعراف التي تحكم هذا المجتمع. تذكر الخليجي أن عليه ابتياع بعض الكتب من

المكتبة المقابلة للمقهى، فقال وهو ينهض من على مقعده: اسمحوا لي أن أزور المكتبة المقابلة لدقائق.. لقد تذكرت أن أبتاع بعض الكتب منها قبل أن تغلق أبوابها.
ودخل في تلك اللحظة رجل أنيق الملبس دقيق الجسم ذو لحية سوداء يشبه بلحيته عرب الخليج، وهذا هو ما اعتقده صاحبنا الخليجي الذي لم يكن قد غادر المكان فانتظر ليصافحه حيث نهض الجميع يحيونه بشكل يوحي بأنهم يعرفونه جيداً وبابتسامة واسعة مد يدة مصافحاً الخليجي ومرحباً به، واتضح أنه أحد العرب غير الخليجيين المقيمين في بريطانيا، حيث يدير شركته وأعماله هناك.. كان رجل أعمال وكانت سمعته طيبة بين الجميع لدماثة أخلاقه ومواقفه المعروفة بجوار وطنه هناك في بريطانيا.
وبعد انتهاء التعارف الأوَّلى بينهما انطلق الخليجي مسرعاً ليعبر الشارع حيث المكتبة في الجانب الآخر من الشارع لابتياع كتبه قبل أن تغلق أبوابها. انقضت نصف ساعة خرج بعدها الخليجي من المكتبة بعد أن اعتذر له صاحبها بأن الوقت قد أدركه وعليه أن يغلق أبوابها الآن، فاكتفي بثلاثة كتب دفع ثمنهم بالإضافة لبعض الصحف والمجلات، وعاد أدراجه يكمل سهرته التقليدية مع الأصدقاء، وبرغم الجلسة التي استمرت حتي الثانية عشرة ليلاً، إلا أنه كان مشغول البال يفكر في مهام الغد، وللحقيقة فإن أكثر ما كان يشغل باله هو ذلك الكتاب سيئ السمعة الذي قرأه منذ شهور وكان معروضا في المكتبة والذي أثار ضجة هائلة في العالم بأسره لتعرض كاتبه بشكل سيئ ورخيص للإسلام وبإهانات بالغة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله ومبلغ رسالته للبشرية، مما تسبب في صدمة كبيرة لمشاعر المسلمين في العالم كله، كما تسبب في إثارة زوابع سياسية وخصومة كبيرة بين أوربا والمسلمين.
وبالطبع كان موقف الغرب السياسي من هذه القضية يحمل في مضمونه وجوهره العداء للإسلام كعقيدة وللمسلمين كأمة كما حمل هذا الموقف الغريب تحديا للمشاعر الدينية ليس فقط للمسلمين بل لجميع أصحاب الديانات السماوية الأخرى. باعتبار أن ما حدث من تجديف وإساءة لعقيدة الإسلام كدين سماوي من الممكن أن يفتح الباب على مصراعيه للملحدين والموتورين للتجديف والإساءة أيضًا إلى الديانات السماوية الأخرى وأصحابها.
كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً حين هم صاحبنا الخليجي بالانصراف إلى منزله، ليس لشعور بالإرهاق أو رغبة في النوم بقدر ما كان يريد أن يقرأ، فقد شعر برغبة عارمة وشهية مفتوحة للقراءة، خاصة وهو يشعر أنه حصل على قسط جيد من النوم، الأمر الذي يتيح له أن يقضي السهرة مع أحد الكتب، الثلاثة، وعرض بعض الأصدقاء توصيله إلى منزله بسياراتهم فأبي مفضلاً العودة بسيارة أجرة وهو يقول: لا تزعجوا أنفسكم فالمنزل قريب كما تعلمون ولا داعي لأن أفسد عليكم مجلسكم، فقط أريد أن تقبلوا دعوتي على العشاء غدا بمنزلي، والمدعوون هم أمريكيان وإنجليزيان أحدهما عربي الأصل وياباني وأنتم الأربعة.. بالمناسبة سيكون عشاء خليجيا صرفًا.
فوافق منهم اثنان واعتذر الآخران لإنشغالهما في ذلك الوقت فقال ضاحكًا ومداعبا الصديقين اللذين اعتذرا: سوف تندمان أشد الندم. فرد أحدهما عليه قائلا وأمَّن عليه الآخر: عموما قرارنا ليس نهائيا، قد تجدنا فجأة هناك في منزلك. فأجابهما: على الرحب والسعة، أنتم جميعًا أهل المنزل وأنا ضيفكم، ثم انصرف متوجهًا إلى منزله. أصرت السيدة منى على الذهاب مع ولدها شاكر إلى الفندق لإحضار حقيبة ملابسه والعودة لقضاء وقته في لندن معها في المنزل، وبالرغم من أنه حاول أن يثنيها عن الذهاب معه حرصاً على راحتها حيث برودة الطقس في هذا الوقت إلا أنها تجاهلت رأيه في بقائها وقالت له: ولدي شاكر، لا تحرم أمك من وجودها بقربك كل دقيقة أنت فيها هنا.. دعني يا ولدي، فلم يتبق من العمر قدر ما مضي.. فامتثل لرأيها وذهبا معاً حيث ألغي حجزه بالفندق وعاد مع أمه للمنزل وكلاهما في حالة معنوية طيبة... لكن شاكرا كان يشعر وكأنه حلم عجيب وكان مذهولاً من تلك الظروف القدرية العجيبة التي أفاقته بصورة دراماتيكية مؤلمة.
جلس الخليجي في فراشه مضطجعاً يقرأ أحد الكتب التي ابتاعها والتي تتحدث عن الفكر العربي المعاصر ومفارقات العرب والغرب، الأمر الذي شد حواسه وانتباهه، فظل مع كتابه هذا حتي الرابعة فجرا حيث أدى صلاته وكتب ملاحظة على ورقة صغيرة وضعها على مقبض باب الشقة الخارجي للسيدة منى يبدي فيها رغبته بأن تتركه نائما حتى يستيقظ وحده، ولم ينس أن يبلغها في ملاحظته المكتوبة أنه رتب مسبقًا موضوع العشاء الذي دعا إليه أصدقاءه اليوم مع أحد المطاعم الكبري الليلة السابقة حتى لا تقلق، وعاد إلى فراشه والنوم يداعب جفونه حيث راح في نوم عميق. ألحت السيدة منى على ولدها لينام في فراشها على أن تنام هي على الأريكة الموجودة بالردهة واستجاب شاكر لإلحاحها بعد أن قضيا سهرة امتدت حتي الواحدة والنصف صباحاً في أحاديث طيبة اطمأنت خلالها على ولدها وأسرته وأخرجت ألبوم الذكريات الذي يحتوي على صور لها ولشاكر خلال مراحل عمره في الحدائق وحفلات ميلاده، ولزوجها الراحل- والد شاكر - وهو يضع يده اليسري على كتفها وهي تحمل شاكرا صغيراً على صدرها. وأثرت إحدى الصور في نفسه تأثيراً بليغا وهو يشاهد محتوى الصورة التي يظهر فيها صغيرا وهو يركض باتجاه أمه ضاحكاً وهي فاتحة ذراعيها لتستقبله ضاحكة سعيدة في أحضانها، وكانت تبدو في الصورة شابة ممتلئة بالحيوية والشباب والجمال مما جعله يدير بصره ناحية أمه ليري امرأة أخرى هدها الزمن وغزا رأسها الشيب واللون الأبيض وامتلأ وجهها بالتجاعيد.
لقد جعلته الصورة يبدو بينه وبين نفسه كمصاص دماء أو لص أفاق سرق من أمه شبابها وذهب بعيدًا في الوقت الذي لم تكن تحتاج فيه سوى حنانه وعطفه ورعايته.. وتذكر ولده في نفس اللحظة ومدي شوقه إليه برغم أنه لم يفارقه سوى ساعات قليلة.. فتحطم قلبه وأحس بذنب عظيم داخل نفسه. لقد شعر بالحيرة وهو يرى نفسه تتغير وكأن حنانه الذي انحرمت منه أمه وعقوقه تجاهها طوال تلك السنوات صار كالدين الوجب السداد في تلك اللحظات.
فنظر إليها نظرة كسيرة وقال لها: أمي أرجوك أن تسامحيني، إني أتعذب بك ومن أجلك. فقالت له: إن الله وحده يعلم كم يحمل قلبي لك من حب يا ولدي، لا تقل ذلك يا شاكر مرة أخرى، إنك وأنت معي الآن أشعر وكأنك لم تفارقني دقيقة واحد... فرأت الدموع تطفر من عينيه

فضمته إلى صدرها وهي تربت على كتفه. انقضي بعض الوقت حتي هدأ شاكر ثم سألته قائلة: هل تصلي يا ولدي، إني أدعو لك الله أن يهديك دائمًا فالجأ لله يا ولدي في كل شئونك وتمسك بدينك فإن فيه النجاة، ليس فقط من عذاب النفس بل من كل الشرور.
وأسرعت إلى داخل غرفتها وأتت بمصحف حصلت عليه من المسجد بالأمس وقالت له: هاك يا شاكر، خذ هذا هدية من أمك واقرأ فيه دائمًا وتأمل معانيه، إنني يا بني لم أشعر للحياة بطعم أو معني حين كنت بعيدًا عني إلا برعاية الله وعنايته، الجأ إليه دائما يا بني. أخذ شاكر المصحف من أمه وحين جاء وقت نومه ألحت عليه لينام في غرفتها وصعد إلى الفراش وهي مازالت واقفة حيث وقعت عينيه على صورته داخل الإطار فوق المنضدة بجانب الفراش، بينما أخذت هي من خزانتها بعض الأغطية والوسائد وأغلقت عليه باب الغرفة بعد أن أخذت الساعة من فوق المنضدة، أطفأت مصباح الغرفة.
قبل السابعة والنصف موعد رنين الساعة الموضوعة بجوار السيدة منى استيقظت هي فأغلقتها قبل أن تبدأ رنينها حتي لا تزعج ولدها النائم داخل الغرفة، وظل شاكر مستلقيا على الفراش وقد جافاه النوم حتى الثالثة والنصف صباحاً حيث نام نوما عميقًا، ولم تشأ أمه أن توقظه، ثم توجهت إلى المطبخ بعد أن اغتسلت وصلت الصبح، فأعدت فطورا كان يحبه ولدها وهو يقيم معها، ثم فتحت باب الغرفة بلطف فوجدته يغط في نومه فوجدتها فرصة للذهاب إلى المنزل الآخر لتعد الفطور للخليجي وبالطبع لم تفتح باب الشقة فعادت بسرعة بعد أن قرأت الورقة الموضوعة فوق المقبض والذي يطلب فيها الرجل النائم بالداخل ألا توقظه.
وبينما هي تفتح باب شقتها إذ هي تسمع صوت الماء المنساب داخل الحمام وولدها يغتسل، فسألته عندما خرج من الحمام يحمل منشفته: لماذا لم تكمل نومك؟ فرد مبتسما وهو يشعر براحة نفسية كبيرة: لقد نمت كما لم أنم من قبل، ومال بوجهه على رأس أمه فقبلها، فقالت له: والآن اكشف غطاء المائدة وتناول فطورك. فسألها: ألن تتناولي فطورك معي؟ فأجابت: طبعًا هل تتخيل أنني أتناول فطوري بدونك؟ وكشف بيده الغطاء عن الطعام ثم شهق قائلاً: كم أحبك يا أمي حتى طبقي المفضل لم تنسيه، وتناولا معاً فطورهما. ثم ارتدى ملابسه وهو يقول لأمه سأذهب الآن لمقر الشركة لأنهي أعمالى وأحضر فور انتهائي منها.
فقالت له: هاك مفتاح الباب ربما تحضر وأنا في المنزل الآخر. لا تقلق إنه على بعد خطوات قليلة، وخذ رقم الهاتف هناك لتخبرني بوصولك إذا حضرت للمنزل ولم تجدني، سأكون هناك يا ولدي من أجل عشاء اليوم ومن أجلك سأصنع أشهى الأطباق، يا شاكر أرجوك احضر فور انتهاء عملك ولا تدعني أقلق عليك.
دون شاكر رقم الهاتف ونظر في ساعته ثم قبل أمه على رأسها وخرج إلى الشارع حيث صخب السيارات الذي لا ينتهي في هذا الشارع وحيث كان الطقس كعادته غائماً وبارداً، فظل يتمشى حتي وصل إلى محطة القطار القريبة بايرل سكورت فاستقل القطار المتجه إلى هامر سميث ثم قطع المسافة حتي مقر الشركة في كنج ستريت سيراً على أقدامه. توجهت السيدة منى بعد أن ودعت ولدها إلى المحلات الشهيرة القريبة وابتاعت احتياجاتها المطلوبة لعشاء اليوم ووضعتها في تروللي كبير ممتلئ ودفعته أمامها حتي وصلت المنزل وهي تتمنى أن لا يهطل المطر، ثم نقلت الأكياس الحاوية للأغراض إلى مدخل المنزل ومن ثم إلى داخل الشقة، وأحدث ذلك بعض الجلبة والضجيج الذي تسبب في إيقاظ النائم إلا أنه ظل مستلقيًا في فراشه نصف نائم حتى قاربت الساعة الحادية عشرة فنهض من فراشه متثاقلاً إلى الحمام، حيث اغتسل وتوجه للمطبخ حيث رأي السيدة منى وهي ترتب أشياءها فألقي عليها تحية الصباح فردت تحيته ووجدها في حالة معنوية جيدة وسألها عن ولدها فقالت له: لم أكن أعلم أن الأقدار سوف تسوق ابني ليتعرف عليك بحكم عمله، ولم أكن أعلم أنه كان معك على الغداء البارحة.
إنني أشعر بسعادة لا توصف لقد أصبح لي الآن ولدان وهما معي الآن. فابتسم قائلاً: أنت سيدة طيبة وتستحقين كل طيب، المهم أرجو أن تكوني في حالة طيبة دائمًا. قالت له: دقائق وسوف أعد لك فطورك. فرد عليها قائلاً: لا تزعجي نفسك بي سوف أرتدي ملابسي بسرعة وأذهب لتناوله في هارودز. نهض وارتدي ملابسه وخرج حيث عبر الشارع إلى الجهة الأخرى وأوقف تاكسيا وأشار له بالذهاب إلى هارودز. وفي الطابق الرابع حيث المطعم طلب من الجرسون أن يجلس في الشرفة المكشوفة، ثم طلب فطورًا إنجليزيا وطبقًا من سلطة الفواكه، وبدأ رذاذ خفيف يسقط وإذا بالسقف الزجاجي المتحرك يغطي الشرفة ويحجب الرذاذ عن رواد الشرفة فاستمتع بسيجارته مع فنجان الشاي لبعض الوقت ثم طلب فاتورته ودفعها تاركًا بقشيشًا جيدًا وانصرف يتجول بين أقسام محل هارودز وطوابقه، وأعجبته إحدى اللعبات وأراد أن يشتريها لولده، لكنه تذكر أنه لن يذهب للمنزل مباشرة فأحجم عن شرائها وأجله لما قبل سفر العودة، ثم خرج في جولة حرة حتي وصل إلى حديقة الهايدبارك حيث كان المطر قد توقف فتجول فيها قليلاً ثم غادرها إلى شارع هاي ستريت كنسنجتون ماشيًا حتي وصل إلى كنسنجتون ماركت، فدلف إليه متجولاً في ممراته الضيقه ثم غادره حتي وصل إلى محل ماركس سبنسر الشهير فدخله وشعر برغبته في العودة ليقضي باقي الوقت مع أحد الكتب التي اشتراها حيث شعر بالملل فاتجه من فوره إلى الشارع وانعطف يساراً متجهاً إلى منزله حيث بدّل ملابسه ودخل غرفة الاستقبال المطلة على الشارع وبيده أحد الكتب التي اشتراها بالأمس، وبعد ما يقارب الساعة شعر برغبته في الراحة قليلاً، فدلف إلى فراشه حيث أصابته غفوه مريحة، نهض بعدها نشيطًا صافي العقل.
بعد الخامسة والنصف مساء دق الهاتف وإذا بأهله على الجانب الآخر يطمئنون عليه، وشعر بسعادة بالغة وهو يحادث ابنته الصغيرة والوحيدة بين ولدين وزجته المتلهفة دومًا شوقًا إليه، وبعد انتهاء المكالمة الهاتفية دق الهاتف ثلاث مرات كان الأول شاكرا الذي فوجئ بصوته على الهاتف وطلب الخليجي منه أن يأتي فورًا إلى منزله الذي لا يبعد سوى خطوات قليلة، وكان يريد محادثة أمه فقال له الخليجي: عليك أن تأتي لتراها هنا، تعال فوراً بعد أن تبدل ملابسك. فقال شاكر: سأحضر بعد أن أنام قليلاً لأحصل على قسط من الراحة، ثم ضحك على الهاتف قائلاً: حيث يبدو أن أمامنا الليلة مجهودا وعملا كبيرا.

فرد عليه الخليجي قائلاً: أرجو أن تحضر فوراً، أنا لن أخرج من المنزل وسأكون بانتظارك. ثم أغلق الهاتف وأخبر والدته بالأمر فاطمأنت وتنهدت وهي تدعو لهما. وجاءت المكالمة الثانية من صديقه الفنان الذي أخبره أنه ليس متحمسًا للعمل اليوم برغم أنه الآن هناك في مكان عمله وسيذهب بعد قليل إلى منزله ليستريح قليلاً، فاقترح عليه الخليجي أن يأتي إليه في المنزل فهو لن يخرج ولن يغادره، فأجابه الفنان: وهو كذلك.

وكانت المكالمة الهاتفية الأخيرة من الرجل الأمريكي الذي حياه بقوله: نحن على موعدنا معك أيها العربي، وزوجتي باربارا تواقة لحضور عشاء اليوم، فهي مهتمة كثيراً بثقافات وعادات الشعوب. فرد الخليجي قائلاً: على الرحب والسعة يا سيد ريتشارد، وسوف أكون سعيدًا باستضافتكم في منزلي للعشاء الليلة. وختم الأمريكي حديثه بقوله: إذن ودائماً إلى الملتقي في التاسعة. فداعبه الخليجي ضاحكاً: إلى الملتقي ولكن لا تأت إلى بقاذفاتك ومقاتلاتك كما عودتمونا أنتم الأمريكيون، فنحن على موعد مع ساعة صفر من نوع خاص نبدأ فيها صداقة ومودة. فضحك الأمريكي عاليًا، وقال وهو يخاطب زوجته ممسكًا السماعة والخليجي يستمع.. عزيزتي باربارا لم تسمعي ما قاله الخليجي، ويبدو أن أفكارًا عديدة ستتغير الليلة.

ثم خاطب الخليجي قائلاً: إننا سعداء بالتعرف عليك وسوف نأتي إليك بعقول وقلوب أمريكية مفتوحة. وختم الخليجي المحادثة بقوله: مرحبًا مرة أخرى وسأكون في انتظاركما. وبعد انتهاء المحادثة قام بالاتصال بالمطعم العربي الذي يعد الأطباق الرئيسية والتي تمثلت في الطعام الخليجي الشهير ليؤكد عليهم الموعد وليطمئن.

قبل الثامنة مساء بقليل دق جرس الباب الخارجي وكان شاكر هو الزائر الأول الذي حضر بناء على رغبة الرجل الخليجي، وما أن اجتاز الباب حتي استقبله صاحب المنزل بكل حفاوة وأريحية، وارتاح شاكر لمقابلة الرجل وشعر في قرارة نفسه كأنه يعرفه منذ زمن بعيد وليس من الأمس، ونادي الرجل الخليجي السيدة منى قائلاً: أم شاكر، تعالى لقد وصل أحد الضيوف فأطلت برأسها من الباب الفاصل بين الممر المؤدي إلى المطبخ وبين الردهة فارتسمت على وجهها ابتسامة تعبر عن سعادة وبهجة وقالت لهما: ماذا تريدان أن تشربا الآن؟ أوه، دعني أحضر لكما كوبين من عصير البرتقال الطازج. فرد شاكر مبتسماً: لا داعي لأن تزعجي نفسك يا أماه.

فعقب الخليجي قائلاً: أنت الآن لست ضيفاً، بل أنت صديق عزيز وأخ، واسترح ودعنا نستمتع بما تقدم لنا هذه الأم الطيبة. وراحا يتحادثان حول أمور شتي وتطرق الحديث إلى موضوع الكتاب وأساليب النشر والتوزيع، ثم تفرع بشكل عام إلى الأحداث التي تجري على الساحة الدولية والعرب والمسلمين ومشاكلهم. ثم استأذن الخليجي بعد أن شرب كوب العصير ليهيئ نفسه لاستقبال ضيوفه تاركاً شاكر مع الكتب والمجلات الموضوعة على منضدة الهاتف.

وقبل التاسعة بقليل خرج صاحب المنزل على ضيفه مرتديًا ثيابه الخليجية التي بدا فيها في غاية الأناقة، وهي عبارة عن دشداشة من الكشمير الإنجليزي الفاخر ذات لون أزرق وعقال وغترة رائعين، بدا الخليجي في ملبسه الوطني رائعاً وكان حذاؤه من النوع الثمين وساعة معصمه تنبئ عن رقي ذوق في الاختيار، وفاحت رائحة عطره الثمين وهو يبتسم لضيفه الذي انبهر برؤيته هكذا. وحين شاهد الخليجي علامات الدهشة بادية على وجه شاكر خاطبه قائلاً: لقد فضلت أن استقبل ضيوفي بالزي الخليجي، فمن الأفضل دائماً أن يكون الإنسان ملتصقًا إلى حد التمازج مع هويته وأعتقد أن هذا يجعل الآخرين يحترمونك مهما كنت مختلفًا معهم في الرأي. وما أن أنهي حديثه مع شاكر الذي ظل صامتًا ولم يجب، فقط ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهه وهو يهز رأسه - حتي دق الجرس، وكان أول القادمين السيد ويلسون، ثم تبعه الأمريكي وزوجته، وبعد وصولهما بدقائق حضر الفنان مع صديقين من مجموعة كوينزواي، وكانت المفاجأة حين دق الجرس في أعقاب آخر الضيوف وحين استفسر الخليجي عبر الميكروفون الصغير الموصل بين الشقة ولوحة الأرقام الخارجية وإذا بالسيد ياماتو الذي أبدي اعتذاره عن التأخير حيث أخذ يتبين ويبحث عن العنوان فتأخر بعض الوقت، بسبب ذلك.

جلس الجميع في غرفة الاستقبال الكبيرة المطلة على الشارع العام بعد أن قام المضيف بتقديم كل منهم للآخرين وجرت مداعبات ترحيبية ضاحكة بين صاحب المنزل وضيوفه، خاصة حين أبدي السيد ويلسون إعجابه بالزي الخليجي قائلاً: هل تعلم أنها أول مرة أراك فيها بالزي الخليجي لدرجة أنني لم أعرفك للوهلة الأولي حين شاهدتك الآن، إنك تبدو أنيقًا في هذا الزي. فعقبت السيدة الأمريكية زوجة الطيار العجوز وهي توجه حديثها للخليجي: إن الصورة التي كانت مطبوعة في خيالى عنكم وعن صوركم لم تكن كما أراه الآن، إن لباسك بألوانه وتصميمه ينبئ عن ذوق رفيع.

فضحك الخليجي خجلاً من الإطراء مخاطبًا السيدة الأمريكية: شكراً لك وللسيد ويلسون على إطرائكما، إنه مجرد زي وطني حرصت على استقبالكم به، ثم اتسعت ابتسامته وهو يستطرد قائلاً: لا تنسى أنك بذلك قد تثيرين غيرة ريتشارد، وأنا لا أضمن رد الفعل لرجل أمريكي يحمل تراث أجداده في الغرب الأمريكي.

فضحك الجميع على تلك الدعابة، وفي تلك اللحظات دخلت السيدة منى حاملة بيديها أقداح العصير الطازج على صينية كبيرة وضعتها على منضدة الوسط وهمت بتقديم الأقداح لكل منهم، إلا أن صاحب المنزل قام بنفسه وقدم التحية لضيوفه شاكراً إياها وموجهاً حديثه لضيوفه قائلاً: إنها إحدى عاداتنا العربية أن يقوم المضيف على خدمة ضيوفه وراحتهم بنفسه. ثم استطرد قائلاً: أيها الأصدقاء اعتبروا أنفسكم هنا أصحاب المنزل وأنا ضيفكم، ومعذرة لعدم وجود مشروبات كحولية في منزلي فأنتم كما تعلمون، فقاطعه ويلسون قائلاً: لا عليك أيها الصديق نحن نعلم ونقبل اعتذارك متفهمين الأمر.

ودارت حوارات ثنائية وثلاثية بين مجموعة الأصدقاء حول موضوعات عامة كان أهمها ما دار بين السيد ويلسون من ناحية والأمريكي وزوجته من ناحية أخرى حول أحدث الكتب التي صدرت ودور النشر الشهيرة وتلك التي اشتهرت فجأة، وكان ضمنها دار النشر التي

اشترت حق نشر وتوزيع كتاب آيات شيطانية للكاتب سلمان رشدي والضجة العالمية التي ثارت بخصوص كتابه هذا. وكانت السيدة باربارا على ثقافة عالية، فقد درست الفلسفة في إحدى الجامعات الأمريكية الشهيرة واشتغلت بالتدريس فترة طويلة.
حيث قالت للسيد ويلسون: أعتقد أنه ليس من المناسب أن نخوض في موضوع هذا الكتاب، التقطت أذنا الخليجي هذه العبارة فاستدار مبتسمًا ومستفسراً. فابتسمت السيدة باربارا وهي تنظر إلى السيد ويلسون الذي بادر إلى القول بأنهم يتحدثون حول كتاب »آيات شيطانية«، ورأت السيدة باربارا أنه من غير المناسب الحديث في هذا الموضوع فربما تسبب ذلك في إيلامكم. نظر الخليجي إلى السيدة باربارا وكان كعادته مبتسماً وقال لها: أشكرك على رقة مشاعرك يا سيدتي، واعلمي أن أية قضية مهما بلغت حساسيتها لن تغضبني، بالعكس فقد تكون مناسبة طيبة لتصحيح فهم خاطئ لكلينا. تحدثي ما شئتي في أي موضوع تريدين مناقشته.
فقالت: مادام الأمر كذلك فاسمح لي أن أسألك: لماذا أثار المسلمون هذه الضجة مع الغرب حول كتاب الأديب الإنجليزي سلمان رشدي؟ ألا تعتقد يا سيدي أنه من الخطأ أن تصادر حرية الكاتب فيما يكتبه ويعبر عنه؟ إننا في الغرب نقدس حرية التعبير. فأجابها الخليجي قائلاً: ربما تستغربين يا سيدتي حين تعلمين أنني كنت أتمنى الآن أن يكون هذا الكاتب معنا الآن هنا لتشاهدي بنفسك كيف أستقبله في منزلي بكل ترحاب من أجل نقاش حر يستهدف الحقيقة. والحقيقة التي لا تعرفينها يا سيدتي أن سلمان رشدي تجاوز الحق والحقيقة وسقط سقوطًا مروعاً في هاوية الكذب والدجل، ودعيني الآن أوضح لك قدر استطاعتي كذبه وبهتانه ودجله وإساءته البالغة المتعمدة لمشاعر ألف مليون مسلم وبشكل مشبوه.
هزت رأسها وهي تنظر إليه باهتمام شديد يعني رغبتها في أن يواصل حديثه فقال: أولاً: يا سيدتي القضية لها أبعاد حضارية تدخل ضمن دائرة الصراع الدائم بين الشرق العربي والإسلام بذاته، وبين الغرب وهذا موضوع سأوضحه فيما بعد.
ثانياً: إن رواية »آيات شيطانية« تجاوزت الواقع عدة مرات، حيث إنها ليست رواية واقعية موثقة تاريخيا تسرد أحداثًا حقيقية حدثت، بل إن حقيقتها تكمن في أنها خرافية.
الأمر الثالث: أنها لا تعبر كما يجب أن يكون عليه تعبير كاتب متمكن عن أحلام واقعية، إنما هي في جوهرها عبارة عن هلوسات نتجت عن كوابيس مزعجة تنم عن تشوه نفسي. وأرجو أن تعلمي أنني الآن أتحدث في سياق التحليل الأدبي للرواية فأرجو أن يتسع صدرك.
فأومأت برأسها والجميع ينصتون فبادرهم بقوله: إن الكاتب الذي يكتب رواية تاريخية يجب أن يعتمد على البحث العلمي والتوثيق، وعليه أن يلتزم منهجًا خاصا لدراسة التاريخ عن طريق الأحداث في روايته حتي لا يتجاوز ولا يسيء للأمانة العلمية تاريخيا. لكن هذا الكاتب تحلل من كل ذلك سواء كان منهجًا علميا أو مصادر موثقه لروايته، وعليه فإنها الوهم والخرافة بعينها فلسنا، نعرف إن كانت روايته مؤلفًا وبحثًا في الدين الإسلامي أم هي رواية تحكي عن تاريخ الإسلام. وكما قلت أنت بالنسبة لحرية التعبير فإنه إن كان حق الكاتب وحريته في الدخول إلى مجال الكتابة التاريخية فعليه الالتزام بالمنهج العلمي وليس بالتضليل المشوه والمسيء لعقيدة سماوية ودين يعتنقه ألف مليون من البشر، خاصة أن الغربيين يجهلون الحقائق الحضارية والنسيج الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية.
وأعود بك الآن إلى شيء مهم جدا يدور حول خلفية هذا الكاتب الآسيوي الأصل الذي ولد في مدينة بومباي، والذي عاني نفسيا منذ صغره بسبب انتمائه للأقلية المسلمة والتي تعيش في محيط من الهندوسية، حيث تحدث في روايته المسماة »العار« عن المآسي التي تعرض لها المسلمون في الهند قبل التقسيم عام 1947، وحين بلغ عمره الثالثة عشرة أرسله والده ليدرس في بريطانيا في مدرسة »روجبي«، وهي مدرسة راقية خاصة بأبناء الطبقة العليا من الإنجليز، الأمر الذي أدى إلى شعوره بالعزلة، ومن ثم إلى انطوائه النفسي حيث أشعره زملاؤه من الإنجليز بالدونية والانتماء إلى طبقة وضيعة وعدم انتمائه الاجتماعي لهم وعدم انسجامه في بيئتهم فتشوهت نفسيته تمامًا وحمل شعوراً بالانتقام بسبب تلك الإهانات، بل وتطور الأمر لدرجة أن زملاءه بدءوا يشتمونه بل ويضربونه لمجرد أصله الهندي، حيث كانت تثيرهم إنجليزيته المشبعة باللكنة الهندية.
لقد امتلأ سلمان رشدي يا سيدتي بمرارة الحقد وشعر بأن ثقافته ولونه المائل للبياض لم يمنحاه جواز المرور الحقيقي ليكون إنجليزيا محترمًا، فأصيب بإحباط هائل ولازمه شعور بالنقص. والغريب في الأمر أنه بعد هذه المرارة والإحباط النفسي انتقل إلى جامعة كمبردج حيث حصل على درجة البكالوريوس في التاريخ وتخصص في التاريخ الإسلامي، وبعد تخرجه في الجامعة عام 1968 عاد إلى بلده الجديدة بباكستان بعد التقسيم حيث تولدت لديه مشاعر وانطباعات سيئة عن باكستان وزاد على ذلك سوء علاقته بوالده والتي أوضحها بشكل مكشوف ومفضوح في روايته »العار« و»أطفال منتصف الليل« حيث شرح ذلك بشكل خلط فيه مشاعر الحب بالكراهية والاحترام بالبغض والعداء. بسبب كل تلك التناقضات القيمية والمشاعر المشوهة كان لابد له أن يحاول صنع المكان والظروف التي تمنحه الاستقرار بعد أن تحطم نفسيا في أوربا، وأقصد بها لندن، في مجتمع وثقافة وتراث مغاير تماماً، وحيث لم يستطع أن يتعايش مع مجتمعه الأصلي فانطوى على ذاته وترجم موهبته الأدبية حيث عمل في التليفزيون الباكستاني لكنه فشل وأخفق في التكيف فكريا وعمليا، إذ رفضت أجهزة الرقابة هناك أعماله، فسبح في محيط الفشل والإخفاق وعاد إلى بريطانيا حيث استطاع بعد لأي أن يبرز في مجال التأليف الروائي، والعجيب في الأمر أنه اعتذر للمسلمين عن تلك الرواية بقوله: «إنني أعترف بأن المسلمين في أنحاء كثيرة قد آلمهم نشر روايتي ألماً شديداً، وإنني آسف للألم الذي سببه الكتاب لأتباع الإسلام المؤمنين».
ثم أكد اعترافه بخطأ الانفلات الأدبي المبني على التضليل والدجل بقوله: «إننا ونحن نعيش في عالم مليء بالديانات والعقائد، فإن هذه التجربة قد جاءت لتذكرنا بأن علينا جميعًا أن ندرك حساسيات بعضنا البعض».

واستطرد الرجل الخليجي قائلاً: هذا بالنسبة إلى خلفيتة النفسية والشخصية، وباعتقادي أن روايته بنيت على مزيج من الواقعية الغربية السابحة في موجات وهمية عن التقاليد الإسلامية. إنها يا سيدتي مأساة هائلة لمسلم آسيوي مغترب يعيش في بلاد متحررة من القيود الروحية فقد ظل الرجل غريباً روحاً وجسداً في نظر الشعب البريطاني، ولن يكون بريطانيا حقيقيا أبداً وتلك مأساته الحقيقية؛ حيث تشكل الرواية خليطاً من المشاعر البشرية والعواطف المتصارعة في نفس تعيش حاضرها بكل أبعاده المأساوية وتنشد مستقبلاً منفصلاً تماماً عن الماضي، وحيث انعدمت قدرته على الرجوع والعودة إلى تراثه الأصلي الروحي والثقافي، فقد انعدمت تلك القدرة أيضاً على الوصول إلى حلمه بالمستقبل وهكذا سقط في وهدة الضياع.

أما النسبة لحرية التعبير فاسمحوا لي بأن أذكركم بوقائع عجيبة عن حرية التعبير في الغرب، وخاصة بلدك ياسيدتي، هل تذكرين إحدى دعايات بيبسي كولا في أمريكا والتي ظهرت فيه مادونا الممثلة الأمريكية وهي تؤدي أغنيتها في شكل صلاة مسيحية وهي واقفة في مذبح كنسي تتسلم قلادتها من السيد المسيح عليه السلام، ماذا حدث؟ احتج الكاهن (دولاند ولدهمن) رئيس جمعية العائلة الأمريكية قائلاً عن هذه الدعاية: »إنها من أكثر الأشياء التي شاهدتها إساءة إلى الدين«. بعد هذا الاحتجاج من الكاهن توقف عدد كبير من محطات التليفزيون عن عرضها.

وفي فرنسا حين عرض فيلم »الإغراء الأخير للمسيح« أحرق المسيحيون المؤمنون قاعة سينما (سان ميشيل) بالحي اللاتيني في باريس. ولم ينتقدهم أحد يومها، ولكن حين أحرق المتظاهرون المسلمون عدداً من نسخ رواية آيات شيطانية احتج الكثيرون مشمئزين من تعصبهم وتصرفهم الهمجي.

وفي كندا تدخلت الحكومة ولجأت إلى القضاء حين صدر هناك كتاب يرفض المزاعم القائلة بقتل ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، وحكم القضاء هناك بمنع الكتاب من التداول في كندا وغرم المؤلف. وهنا يا سيدتي في بريطانيا التي دافعت عن أحقية نشر تلك الرواية في بريطانيا تحت دعوى حرية التعبير، فإنها صادرت ومنعت نشر الكتاب الشهير للكاتب البريطاني (بيتر رايت) والمسمي »صائد الجواسيس«، كما حاولت مصادرته في أستراليا، وكان يتحدث فيه عن التجسس بين الشرق والغرب.

هل حرية التعبير تسمح بالكيل بمكيالين؟ إن القضية أبعد من ذلك يا سيدتي؟ كان الجميع منصتين باهتمام حين دخلت السيدة منى لتدعوهم إلى غرفة الطعام لتناول العشاء. فقال الخليجي باسماً بعد انفعاله في أثناء الحديث: هيا بنا نستمتع بالعشاء وسوف نستكمل الحديث مع أقداح الشاي بالنعناع بعد ذلك.

ونهضوا جميعاً متوجهين إلى غرفة الطعام حيث امتلأت المائدة بأشهى الأصناف من المأكولات العربية. ودار حوار جماعي بين الحضور وهم يتناولون طعامهم أبدي خلاله السيد ويلسون ملاحظة مهمة حين قال: لا يمكننا إنكار القيمة الكبيرة لمقدرة سلمان رشدي الأدبية والتي تنم عن موهبة حقيقية إلا أن هناك شيئًا يجب أن أشير إليه وهو فكرة الرواية.. ثم توجه بحديثه للخليجي قائلاً: هل قرأت رواية الكاتب اليوناني الشهير (نيكوس كازانتزاكيس) »المسيح يصلب من جديد«؟ فأجاب الخليجي قائلاً: نعم لقد قرأتها منذ زمن طويل لكنها مطبوعة في ذاكرتي، إنه روائي فذ، ورواية المسيح يصلب من جديد عمل أدبي راق ومتكامل.

فاستطرد ويلسون قائلاً: إنني أعتقد وكثيرين من المهتمين بالأدب يعتقدون بأن فكرة رواية آيات شيطانية مستوحاة من تلك الرواية التي كتبها الأديب كازانتزاكيس. فاعتدل الخليجي وهو ينظر إلى السيد ويلسون قائلاً: برغم من أنه لم يجل بخاطري هذا الأمر إلا أنني أوافقك تمامًا على رأيك، لقد كانت رواية المسيح يصلب من جديد رغم قيمتها الرفيعة أدبيا إلا أنها كانت رواية خرافية تسيء وتسفه المسيح عليه السلام وتحط من شخصيته وتجعل الشيطان يوقع بالمسيح تحت إغرائه ويدعوه إلى أفكار دينية متضاربة، بل وأذكر أنه في أحد الأحلام بالرواية يدفعه الشيطان إلى التخلي عن رهبانيته والتزوج من امرأة داعرة وارتكاب الفحش مع امرأة أخرى. ورد شاكر قائلا: نعم إن هذا أقرب للصحة. لقد قرأت الرواية المذكورة بالفعل، هذا صحيح يا سيد ويلسون، وعقبت السيدة الأمريكية وزوجها قائلة: ربما يكون ما قلتموه كان صحيحًا إلى حد ما، لكن هل هناك في رواية آيات شيطانية أي أشياء صحيحة مما ذكرها تاريخيا؟ فانبري أحد العرب المتواجدين على مائدة العشاء قائلا: لو قرأتي عن الإسلام يا سيدتي وتعايشتي مع شرائعه وتفاصيل العقيدة وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي كما هي ثابتة وموثقة لعلمتي أن ما كتب في تلك الرواية دجل ونفاق.. إن سلمان رشدي ينافق الغرب يا سيدتي، وكل ما أتى على ذكره مختلق من خياله وباطل. فقاطعه الخليجي قائلا: الرواية علميا ساقطة لأنها تتعارض مع حقائق التاريخ والعقيدة وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى المنطق العقلي.

ثم تساءل قائلا: هل تعلمون لماذا أثار سلمان رشدي مشاعر المسلمين؟ واستطرد مجيبا: لأنه تناول الموضوع بطريقة رخيصة وبذيئة وساقطة وجارحة، نحن نعلم - ليس من الآن- بل من بدء الرسالة أن هناك محاولات للهجوم على الإسلام كعقيدة وتراث حضاري، وأن هناك الكثيرين الذين كتبوا دون وعي أو أسانيد ضد الإسلام كبعض المستشرقين في القرن التاسع عشر محاولين هدم الإسلام، أمثال كارل بروكلمان وغيره، لكن وكما أشرت في بدء حواري أن للموضوع أبعاداً أخرى وعلى السيد ريتشارد أن يخرج كل ما في جعبته بعد أن نعود إلى مجلسنا، وأدعوكي يا سيدة باربارا أن تقرأي المؤلفات الحقيقية التي تتحدث عن الإسلام لتعلمي عظمته كرسالة تحمل الخير والأمن والسلام والعدل للبشرية.

وبرغم ما حدث فإن هناك في أوربا وأمريكا ومضات إيجابية مضيئة ظهرت من شخصيات ورموز ثقافية وعلمية تعبر عن استنكارها ورفضها لتلك الرواية، وأكتفي بالنداء الذي وجهه المؤرخ الكنسي المسيحي الأمريكي الشهير (روبرت جراماهار) إلى البابا يوحنا الثاني، يطلب منه التنديد بتلك الرواية لأن كاتبها أهان المشاعر الدينية لكل المؤمنين بالأديان السماوية.

وفي فرنسا قال الكاردينال (دوكوتري) رئيس مؤتمر الأساقفة الفرنسيين مخاطباً المسيحيين الفرنسيين: »إن كتاب آيات شيطانية يطعن المسلمين الفرنسيين ومعتقداتهم كما طعن فيكم (سكورسندي) وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلاً«. وهناك الكثير من الغربيين الذين يرفضون هذا النفاق الرخيص.

فعقب شاكر أيضًا بقوله: لقد علق البروفيسور (جرجس صايغ) مدير مركز الدراسات الشرق أوسطية، وهو مسيحي ويعمل في جامعة كاليفورنيا ولوس أنجلوس بقوله: »إن سلمان رشدي غارق في أسوأ أنواع الكفر، إنه كافر ومرتد عن عقيدته«.

كما قرأت أيضاً تعليق البروفيسور (وليم جراهام) أستاذ تاريخ الأديان والدراسات الإسلامية في جامعة هارفارد حول تلك الرواية حين قال: »إنه خلال الرواية وبين المشاهد الإسلامية الحقيقية سُربت كلمات وافتعلت حوادث وتشابكت معها مفردات لا تمت إلى الدين بصلة غرضها أن تحط من الإسلام.

إن هذا النوع من إضافة الباطل إلى الدين قد آذى مشاعر المسلمين كما لو أنك في موعظة دينية مسيحية تقرأ فيها الإنجيل وفي سياق الموعظة أظهر السيد المسيح عليه السلام وكأنه يضاجع العاهرات«.

وخلال الطعام كانت الحوارات تتداخل وكانت السيدة باربارا تسأل عن أسماء أنواع الطعام ومكوناته، وقد أبدي الجميع ارتياحهم وسعادتهم وإعجابهم بالطعام، خاصة أطباق الحلوي التي صنعتها السيدة مني، ثم انتقل الجميع عائدين إلى غرفة الاستقبال. كان العجوز الأمريكي يشعر بأنه سيثير زوبعة بأسئلته، بل قل سيدفع للحوار الشيق بطاقة جديدة متوهجة تجعله كما تخيله هو يجنح بأشرعته صوب شواطئه أو كما يريد هو، بل حسب قناعته ومفاهيمه كأمريكي شارك كطيار مقاتل في المعارك النهائية للحرب العالمية الثانية وفي حرب فيتنام وتنقل بين القواعد العسكرية الأمريكية في أنحاء متعددة من العالم. ويبدو أنه آثر الصمت في البداية حتى يستطلع آفاق النقاش والبعد النفسي والمعرفي لذلك العربي الذي التقاه مصادفة في أحد مطاعم المدينة بالإضافة إلى رغبته في استكشاف الجانب الآخر الذي يعرفه من خلال وسائل الإعلام والخطاب الإعلامي الصادر في الغرب نحو ذلك الآخر. كان العربي في مخيلته صورة غامضة ومهزوزة للتخلف والهمجية تثير فضوله بما تحمله تلك الشخصية العربية الإسلامية من خصائص ارتسمت في ذاكرته وخياله بكل الشرور والعدوانية التدميرية، وهو الأمريكي الذي يتسيد العالم بقدرته الشاملة وقوته الساحقة حضاريا ومعرفيا وبكل المعاني التي تشتمل عليها عناصر الحضارة الإنسانية التي يعيشها العالم في هذا العصر.

كان يريد النبش لاستكشاف مصداقية الإعلام الغربي الذي اعتبر أن الإرهاب والتعصب ظاهرة إسلامية وعربية، وبشكل يحاول أيضًا أن يجعل ذلك الإرهاب والتعصب العربي الإسلامي إحدى المسلمات التي يؤمن بها الناس هناك. وابتدر حديثه بسؤال ذكي عن الشرق محاولاً بلباقة تفادي الإشارة المباشرة إلى العرب والمسلمين، حيث قال: اسمحوا لي أن أسألكم باعتباركم عربا ومسلمين حول ماهية وفلسفة الصراع الدائر بينكم كشرق وبيننا كغرب ولماذا يخرج العنف من بلادكم باتجاهنا كغرب، وأقصد تحديدا لماذا تلك الروح العدائية، إننا نشعرمنكم بالعداء للدرجة التي تشعرنا وكأن عداءكم قائم ضد الحضارة وقيمها التي صنعها الغرب؟ ثم استطرد: إنه شيء محير أن تكونوا قد ساهمتم - كما قلت من قبل - في أسس تلك الحضارة، وما نستشعره الآن... أليس كذلك؟ نظر شاكر باتجاه الرجل الخليجي الذي كان يستمع في تلك اللحظة وسيجارته في يده.

كما تطلع إليه الآخرون. حيث سحب نفسًا عميقًا من سيجارته ثم أطفأها قائلا وهو ينظر إلى ريتشارد: أشكرك صديقي ريتشارد على سؤالك الذي كنت أنتظره، ثم تحول باتجاه الآخرين وهو يقول: فقط أرجو أن تسمحوا لي بالإسهاب قليلا في الإجابة: اسمح لي يا صديقي أن أعود بك قليلا إلى منابع ذلك الصراع إن صح الأمر، والذي أعتبره أنا كعربي مسلم أنه سوء فهم وتباين ثقافي ولَّد تلك الحالة من الصراع؛ فقبل هوميروس في القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن الخامس قبل الميلاد خلال المرحلة الكلاسيكية الأثينية، كان الغرب يستمد مناهله الثقافية من بلاد الشام والعراق ومصر، ومع الحضارة الهيلينية التي نضجت واستقلت ثقافيا برزت مقولة الشرق والغرب؛ حيث امتلكت أوربا الحضارة اليونانية باعتبارها أشبعت الاحتياج الأوربي للعمق وللجذور التاريخية للهوية الثقافية الأوربية، وأستدل هنا بقول الباحث الفرنسي (تيري هانتش) في كتابه »النظرة السياسية الغربية لشرق المتوسط« بمعني أنه مع الحضارة الهيلينية في اليونان بدأ ما أشرت أنت إليه باعتباره صراعا وبدأ معه بروز كلمة شرق - غرب، وبعدها وقفت أوربا ومؤرخوها عن البحث في الأصول الحضارية والجذور الثقافية للذات الأوربية، ولم يعودوا مشغولين بتبرير مشروعية تاريخية وثقافية وجدوها عند اليونان الأوربية، وبالتالى أصبحت روما هي أوربا وأصبح البحر المتوسط مركز العالم الغربي خلال تلك الحقبة.

ومع الفتوحات الإسلامية والامتداد الحضاري العربي لأجزاء كبيرة في منطقة المتوسط في القرن الثامن الميلادي حدث الانفصال الحاسم؛ حيث فرض المد الحضاري العربي على أوربا أن تتراجع وتتقلص إلى مجالها الروحي المسيحي الذي يقع مباشرة تحت وصايتها، الأمر الذي أحدث شرخا ثقافيا قويا بين الشرق والغرب لدرجة أن اللاوعي الأوربي لم يستطع التخلص من هذا التحدي الحضاري الذي فرضه العرب على أوربا إبان العصور الوسطى وأيضًا لم يتمكن حتي الاستعمار الغربي والتفوق المادي الحالى للغرب من محو آثار الفتوحات العربية قبل اثني عشر قرنا، حيث أصبحت تلك الأحداث التاريخية جزءا أصيلاً من تاريخ المنطقة بأسرها.

ويرى هذا الباحث أيضاً في سياق بحثه أن هذا التفسير للأحداث يحمل في طياته رؤية عرقية لتاريخ المنطقة من قبل الغرب. لكن هناك حدثا آخر أبرز بجلاء ذلك الصراع الحضاري بين الغرب والعرب، هذا الحدث كان حاسماً ونهائياً في حدوث القطيعة بين الشرق والغرب وهو الغزوات والحروب الصليبية.

والسؤال الذي يثور هنا هو: لماذا؟ والجواب لأن الغرب اكتشف خلال الحروب الصليبية أن الإسلام ليس دينا وعقيدة فقط، بل هو مشروع حضاري يسعى إلى الانتشار عالميا كما يسعى إلى الوصول إلى كل الشعوب والحضارات الإنسانية باعتباره رسالة شاملة.
ومن خلال هذا السياق التاريخي للأحداث تبلورت وتشكلت النظرة الغربية للشرق، وهذه الرؤية التاريخية مازالت تشحن النظرة الغربية التي يحملها إنسان الغرب عن الشرق، وعليه فإن الرؤية العدائية أو الصورة المشوهة التي يعتمدها الغربي في نظرته للعربي المسلم حصل عليها من خلال مراحل تاريخية وأحداث جرت قبل مئات السنين، وبشكل رئيسي من الخطاب العدائي للكنيسة الكاثوليكية التي نظمت حملات تشهيرية بالإسلام وصمت خلالها دعوة الإسلام بالهرطقة والدجل منذ بداية القرن الحادي عشر وحتى بداية القرن العشرين حين توقفت عن ذلك أجهزة المؤسسة الكاثوليكية بهدف صبغ المسيحية بالصفة العالمية وجعلها أكثر انفتاحاً. وكما قلت يا صديقي ريتشارد فقد ولَّد هذا الاحتكاك التاريخي في أثناء الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية في النفسية الغربية عداء وبغضا للعرب والإسلام.
فبادرت السيدة باربارا قائلة للخليجي: من الطبيعي أيها الصديق أن يولد هجومكم العسكري في أثناء المد العربي الإســلامي على أوربا وحضــارتها هذا العــداء، ألا تؤمــن معي يا سيدي بأن العدوان والتدمير أمر ترفضه الأعراف الإنسانية والديانات السماوية؟ فأجابها بسرعة وهو يرفع يده علامة على فهمه لمغزى سؤالها قائلا: لا يا سيدة باربارا، لم يكن عدوانا وتدميراً، لم يكن القتل والتدمير المتبادل سمة هذا الاحتكاك، أو لنقل: إنه الذي ميز ذلك الصراع بين الجانبين بل كان العلم العربي الذي توهجت به حضاريا الثقافة العربية الإسلامية في ذلك الوقت هو المصدر الأساسي والعظيم للمعرفة التي مكنت أوربا ومنحتها مقومات القوة العلمية التي تسيدوا بها العالم بعد ذلك.
فهزت رأسها علامة الموافقة في حين انبري ريتشارد زوجها متسائلا: برغم إعجابي بطروحاتك ورصدك التفسيري لتاريخ الصراع إلا أنني أود أن أسألك سؤالا مهما وهو: أنتم تعتقدون أن الغرب بموجب تفسيركم التاريخي يحمل عداء وكراهية تأصلت في نسيجه النفسي، لكن لماذا حجب الغرب كل إيجابيات الحضارة العربية والإسلامية انطلاقا من مبدأ تقييم الخصم وتقدير وزنه الحضاري؟ وأجاب الخليجي قائلا: أيضا سيكون ردي على هذا السؤال بلسان الغرب متمثلا في كتاب العالم الفرنسي نفسه (تيري هانتش) حيث اعتبر هذا الباحث أن التاريخ الغربي عمد إلى تشويه الحقائق خلال تلك الحقبة ولم يبرز منها أو يحتفظ إلا بما يؤجج الحقد والكراهية وتغاضى عمدا عن الإنجازات والعطاءات العلمية والحضارية العربية، حيث إنه بين الإعجاب بالعلم العربي من ناحية، والعنصرية المناهضة للإسلام كانت هي التي رسخت وأثرت بشكل عميق ومستمر في العقلية الغربية.
ويعتبر هانتش في نفس كتابه أن أوربا جعلت من الحضارة العربية الإسلامية نموذجها العلمي والحضاري إبان العصور الوسطي؛ حيث إنها كانت في مرتبة أدنى من التطور قياساً إلى المرتبة التي وصلتها التجربة العربية الإسلامية من ازدهار وقوة. فاستطرد ريتشارد قائلا: هل تريد القول بأن أساس الخلاف والتناقض الفكري والسياسي الحالى هو ذلك التفسير التاريخي؟ أجاب الخليجي: إنه الأساس الذي انبني عليه الصراع، إلا أن هناك عناصر أخرى تتحكم به، وهي العوامل التي تحكم حركة الصراع الحالي.
إننا يا سيدي أمة تملك تاريخا وتراثا حضاريا غنيا وثقافة مغايرة، ومجرد امتلاكنا لهذه العناصر تاريخا وتراثا حضاريا مغايراً أمر طبيعي... إنه شيء بدهي. لكن المشكلة أنكم تفهمون ذلك الصراع بشكل مخيف بحكم العقدة النفسية التي تأصلت في العقلية الغربية بسبب أحداث الصراع التاريخية فمثلا: أنتم زرعتم إسرائيل في قلب العالم العربي، ليس من أجل اليهود فأنتم تكرهونهم وأذكرك بالهولوكوست (محرقة اليهود) لقد جرى ذلك في أوربا وبالمقابل فقد نزلت الديانة اليهودية في بلادنا كما نزلت المسيحية والإسلام وعاش اليهود بيننا في سلام وأمان، هذا السلام والأمان حدث بموجب قيمنا الحضارية والإنسانية؛ لكنكم يا سيدي وأنتم تزرعون إسرائيل وتؤيدون عدوانها على العرب كانت تحكمكم نفس العقدة ومنهج الصراع الذي تتخذونه أساسًا للحكم علينا.
حتى وأنتم تتعاملون مع تطلعاتنا المشروعة أو تفرضون علينا ما لا نريده تحكمكم نفس العقدة ونفس المنهج الفكري في إدارة ذلك الصراع.
أسألك الآن صديقي ريتشارد بعد ذلك العرض الموجز للأحداث: هل تعتقد يا سيدي بأننا أمة من الهمج والبرابرة لا حضارة لها ولا ثقافة ولا تراث، نريد تدمير الحضارة الغربية أو أننا إرهابيون؟ فأجاب ريتشارد: بالمنطق السليم الذي تحكمه قواعد التاريخ والثقافة: أقول لا، ثم استطرد بسرعة: بالطبع لا يمكن أن يكون الحكم بهذا الشكل.
فرد عليه الخليجي قائلا وهو يضحك: هل تعلم أن الدكتور هنري كيسنجر - وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السابق - له مقولة شهيرة يقول فيها: »إنه لا يجوز أن نترك لهؤلاء العرب الهمج فرصة التحكم في مصير الطاقة ومصير الحضارة الغربية«.
إن قول السيد كيسنجر يعبر بوضوح لا لبس فيه عن الفكر الذي يحكم ويتحكم في العقلية الغربية، خاصة عقلية القيادات الغربية وبشكل يظهر بجلاء أن سياسات القادة الغربيين لا تتحكم فيها فقط المصالح المادية والإستراتيجية، بل دوافع وأهواء تتسامي عن سلطة العقل وتتحكم بلا وعي في هؤلاء القادة الغربيين، إنها يا سيدي الصور السلبية التي تأصلت في العقل والخيال الغربي عبر التاريخ.
فانبري ويلسون يسأل أيضًا، وقد ظل صامتا يستمع طول وقت الحوار: لماذا أنتم فقط؟ أليست هناك أيضًا أمم أخرى تعيش معنا في هذا العالم تمتلك نفس المقومات التي ذكرتها والتي تؤسس حركة صراع بيننا وبينها؟ فأجابه الخليجي مداعبا: حتي أنت يا بروتس! ثم قال: لا تنس حقيقة هائلة الوضوح يا ويلسون، إنها التماس الجغرافي بيننا وبينكم، إننا في الشاطئ المقابل وفي الحدود الشرقية، إضافة إلى أننا كما قلت نملك مشروعا حضاريا حقيقيا وهو الإسلام بالإضافة إلى أحداث التاريخ. ثم من قال إنه لا يوجد صراع بينكم وبين باقي الأمم؟! هل تعتبرون بصفتكم الغربية أن اليابان جزء من العالم الغربي؟... بالطبع لا، ولن يكون، ثم غمز بعينيه للسيد ياماتو الذي ضاقت عيناه من الابتسام.
فقال ريتشارد ضاحكاً أيضاً: رغم كل ما قلت لن نسمح لكم يا سيدي بأن تنهضوا مرة أخرى أو تملكوا القدرة على منافستنا حضاريا، إن ذلك منطق التاريخ.

فرد الخليجي قائلا: نعلم ذلك يا صديقي ريتشارد ونحن بالفعل لا ننظر للأمر من تلك الزاوية. إننا ننشد التقارب والثقة وننبذ العداء المبني على أوهام أسستها أحداث يُظهر تحليلها أن التقارب والتواصل الإنساني هما الأساس العظيم لبناء حياة الإنسان. إننا نعيش في كوكب واحد ونمخر عباب الحياة الإنسانية في قارب واحد، وعلينا أن نسعى معا للوصول إلى الهدف الأسمى. إن الصراع أمر حتمي وبديهي بين البشر، لكن يجب علينا أن نوازن بالعدل وليس بقوة الظلم بين هذه القواعد لتدعم جسور التواصل بين الشعوب والحضارات، كما يجب علينا نحن البشر أن نستطلع آفاق المستقبل معا لنعلم إلى أين نسير دون خوف أو رهبة أو إحساس بالكراهية. وأذكِّرك يا صديقي بأن كل الحضارات التي سادت منذ فجر التاريخ أكلت نفسها وبادت؛ لأن هذا الأمر من سنن الخالق العظيم، وأنتم برغم عظمة الحضارة التي تملكون زمامها لستم معصومين من عوامل التآكل تلك.

فنهض السيد ريتشارد من على مقعده متأثرا وهو يقول: إنني فخور بك وبتاريخ أمتك وبرغم الخلاف القائم بيننا في أمور عديدة مازالت طي النفس، إلا أنني أعترف بأن الغرب يجب أن يسعى جادا لتغيير المفاهيم الخاطئة عن العرب والإسلام. إنني أشكركم على استضافتكم لنا وعلى تلك الأمسية الطيبة. واستأذن منصرفًا مع زوجته على أمل التواصل واللقاء ثم تبعه السيد ياماتو. أما شاكر فقد غادر الغرفة إلى الداخل حيث والدته فعانقها قائلا: لقد ولدت من جديد. إنني أحب هذه البلاد التي نشأت وترعرعت بها لكنني أعتز بك يا أمي وبجذوري العربية وبكيا معًا مرة أخرى.

ثم عاد إلى السيد ويلسون حيث عرفه على أمه. قاربت الساعة على الثانية عشرة والنصف حين انطلقت السيارة بركابها الأربعة إلى كوينزواي لتبدأ سهرة أخرى بين الأصدقاء. وفي الطريق حيث كان الفنان يقود سيارته صامتًا، قال فجأة: لقد ولدت في خيالي فكرة رائعة للوحة فنية تجسد لقاء الليلة. فقال آخر ضاحكا: وبِمَ ستسميها إذن؟ فرد قائلا: حوار على ضفاف التايمز.

المراجـــع

1- المتخيل والتواصل (مفارقات بين الشرق والغرب) (محمد نور الدين).
2- همزات شيطانية (دكتور نبيل السمان).